العلاقة بين اللغة والفكر

دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة

سبحان الله الذى خلق الانسان علمه البيان ، وخلق فيه القدرة على التفكير والتعبير باللغة دون سواه من الحيوان

تأليف

دكتور / أحمد عبد الرحمن حماد

مدرس علم اللغة - بجامعة الامارات العربية المتحدة

١٩٨٥

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتر - الازاريطة - الاسكندرية

العلاقة بين اللغة والفكر

دراسة للعلاقة اللزومية بين الفكر واللغة

سبحان الله الذي خلق الانسان علمه البيان، وخلق فيه القدرة على
التفكير والتعبير باللغة دون سواه من الحيوان

تأليف

دكتور / أحمد عبد الرحمن حماد

مدرس علم اللغة - بجامعة الإمارات العربية المتحدة

١٩٨٥

دار المعرفة الجامعية

٤٠ شارع سوتر - الازاريطة - اسكندرية

العلاقة

بين

اللغة والفكر

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

سبحان الله الذى خلق الإنسان علمه البيان ، وخلق فيه القدرة على التفكير والتعبير باللغة دون سواه من الحيوان .

ولقد دفعنى إلى كتابة هذا البحث المتواضع عن الفكر واللغة ما لمسته أثناء دراستى وتفحصى لكتب اللغة فى القديم وعند المحدثين فلم أجد من أفراد له بحثا خالصا وذلك لما يعتور هذا البحث من تعقيد وغموض فهو فلسفى عقلى لغوى ، وبعد قراءات متعددة لعدة كتب فلسفية ولغوية أخذت على عاتقى ان أخوض فى هذا المضمار راجيا الله أن يلهمنى التوفيق والسداد لما فيه مصلحة لغتنا العربية الشريفة التى هى بحاجة ماسة الآن لصونها وحفظها والارتفاع بها إلى مستواها اللائق بها حيث كانت وستبقى لغة القرآن لغة الذكر الحكيم ، ولقد اشتمل هذا البحث على نبذة تاريخية عن أصل اللغة وذكر الآراء فى نشأة اللغة أهى توفيقية أم اصطلاحية وقد أوضحت رأينا فى هذا الموضوع حيث أن اللغة توفيقية اصطلاحية معا فهى توقيفية فى عهد آدم عليه السلام اصطلاحية اجتماعية فى العهود التالية لأن الحياة متطورة متغيرة ولابد لهذا التطور من مسايرة اللغة حتى تعبر عن حاجة أهلها والمتلاغين بها .

ثم أوضحت علاقة الفكر باللغة وناقشت الآراء فى هذا الموضوع موضحا أن اللغة والفكر هما وجهان لعملة واحدة فلابد للمفكر من لغة يعبر بها الإنسان عن أفكاره ورغباته ولابد للغة من فكر حتى يطورها

ويسمو بها فالفكر يتطور وينمو وبذلك تنمو اللغة وتتطور وتسايره نموا بنمو حتى تستطيع أن تعبر عنه أصدق تعبير .

ثم أوضحت الأثر الرئيسي للغة وسيلة للتعبير والتوصيل والتبليغ وكان لابد من الاشارة إلى دلالة الألفاظ على المعانى مبينا أهمية البحث فى دلالة الالفاظ ، وكان حديثى عن نشأة اللغة عند الطفل ضروريا لاثبات أن اللغة مكتسبة وليست وراثية ثم أوضحت السبل التى يتعلم الطفل بواسطتها اللغة وكذلك أثر اللغة فى حياة الراشدين من الأفراد وكيف أن اللغة تكون عاملا مميزا للإنسان فى بيئته وطبقته ومهنته .

وبعد فاننى ارجو الله العلى القدير أن أكون قد وفقت فى كشف الغموض الذى يكتنف علاقة الفكر باللغة وايضاح اثر الفكر على اللغة واللغة على الفكر وسبحان الله الذى خلق الإنسان وأودعه عقلا يفكر به ويدبر .

وبالله التوفيق ..

أحمد حماد

العين فى ٢٧ جمادى الأولى

الموافق ١٢ من مارس ١٩٨٣ م

الفصل الأول

نبذة تاريخية

فى الحقيقة أن التفكير فى أصل اللغة بدأ عندما انصرفت عقول الناس إلى اثارة أسئلة من هذا النوع : لماذا لا يتحدث البشر فى كل مكان نفس اللغة ؟ وكيف وضعت الكلمات لأول مرة ؟ ومن هو واضعها ؟ وما هى العلاقة بين الكلمة والشيء الذى تقوم مقامه ؟ ولماذا نطلق على ذلك الشيء هذا الاسم بالذات لا اسما آخر ؟

لقد اتسمت هذه الأسئلة فى القديم بالطابع الغيبى وهكذا نجد فى الكتب السماوية بأن اختلاف اللغات مرده إلى عقاب الله عز وجل للإنسان على ذنوبه وغروره . وكلنا يعرف قصة برج بابل الذى قيل فى الكتاب المقدس بأن أولاد نوح عليه السلام ارادوا تشييده لبلوغ السماء ففرق الله كلمتهم وخيب سعيهم بتغير لغاتهم التى يتفاهمون بها ، وجاء فى سفر التكوين ؟

« والله خلق من الطين جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء ثم عرضها على آدم ليرى كيف يسميها وليحمل كل منها الاسم الذى يضعه له الانسان فوضع اسماء لجميع الحيوانات المستأنسة ولطيور السماء ودواب الحقول »[1] .

أما فلاسفة اليونان فقد أثاروا مشكلة أخرى اتسمت بالتجريد فقد تساءلوا عما إذا كانت الكلمات تعبر بالطبيعة وبالضرورة عن المعانى

(١) سفر التكوين الاصحاح الثانى الآية ١٩ وما بعدها .

التي تشير اليها أم أنها مجرد رموزا اصطلاحية لمعان يمكن أن يعبر عنها بأصوات أخرى ؟ .

إن الجواب على هذا السؤال نجده فى الحوار الذى كتبه أفلاطون بعنوان « قراطيل » ولعله من المفيد أن تلخص ما جاء فى هذا الأثر الفلسفي فهو عبارة عن محاورة تدور بين هرموجين وقراطيل وهما من تلامذة سقراط ، حول الاسماء وانطباقها على مسمياتها وبينما هما يتحاوران إذا بسقراط يقبل عليهما فيطلب منه هرموجين أن يشارك فى الحديث ليفصل فى ما نشب بينهما من خلاف أما قراطيل ، فيرى أن الأسماء وضعت على شاكلة الأشياء ، وهى لها كالقالب وأما هرموجين فيرى بأنها نتيجة للاتفاق والاصطلاح ، وعندئذ يعتذر سقراط كعادته قائلا فى تواضع بأنه غير كفء لأن يكون حكما بينهما إلا أنه على استعداد للمشاركة معهما فى الحديث ، ولا يكاد يأخذ فى الكلام حتى ينطلق ويشرف على الحوار مخاطبا هرموجين أولا ثم قراطيل ثانيا ويبرهن لهما أن كلا منهما قد جانب الصواب فيما ذهب إليه ويوضح فكرته بطريقة لبقة مبينا لهما أن الكلام منه ما يحتمل الصدق ومنه ما يحتمل الكذب فاذا صح ذلك فان أقسام الكلام هى بدورها تحتمل الصدق والكذب وبالتالى فان الاسم الذى هو جزء من الكلام يحتمل بدوره الصدق والكذب ، ومن الناس من يعتقد أن الاسم الذى يطلقه كل انسان على شيء من الأشياء هو الاسم الصحيح ولكن ما هى حقيقة الأشياء ؟ أهو الوجه الذى تظهر به لكل فرد جريا على مذهب بروتاغوراس Protagoras[1] .

---

(١) فيلسوف يونانى عاش بين ٤٨٥ ، ٤١١ ق . م وكان يرى أن المعرفة أساسها الإحساس .

أم أن الحقيقة لها وجه واحد هو الوجه الذى يراه كل انسان كما قال أوتيدم Euthydeme[٢] أم فرضية بروتاغوراس فهى مرفوضة لأنها لو كانت صحيحة لكان جميع الناس حكماء وعقلاء . وكذلك فرضية أوتيدم لانها لا تفرق بين الاخيار والأشرار ، وعلى ذلك فللموجودات (أو الكائنات) جوهر ثابت لا يتبدل بقطع النظر عن الوجه الذى تظهر به للإنسان والمقصود بالموجودات ليست هى الأشياء فحسب بل كذلك الأفعال وبما أن الكلام نوع من الفعل فان العقل يقضى بأن تسمى الأشياء بحسب ما تستلزمه طبيعتها ، وأن يطلق عليها الاسم الذى يناسبها ويمضى سقراط فى كلامه فيشبه عملية التسمية بالحياكة وكما أن المكوك يستعان به لفك الخيوط المتشابكة ، فكذلك الاسم يستعمل لتعليم الناس وارشادهم إلى وجه الحقيقة ، وكما أن المكوك من صنع النجار فكذلك الاسم انما هو من وضع الواضع . فإذا أراد النجار أن يصنع المكوك فينبغى أن يعطى له الشكل المناسب لنوع العمل المرغوب . وكذلك الاسم فلابد أن يكون مناسبا للشيء الذى اطلق عليه ، وإذا قيل من يا ترى سيحكم بما إذا كان الشكل الذى أعطى ، والاسم الذى وضع مناسبين ؟ فالجواب على ذلك أن الحكم لمن سيستخذ مهما وبعبارة أخرى فالحكم سيكون للمتكلم لأنه هو الذى سيقبلهما أو يرفضهما . وعلى ذلك فالواضع انما يضع الأسماء مهتديا بآراء جماعة المتكلمين وما كل انسان بقادر على أن يضع الأسماء بل هذا العمل مقصور على من يستطيع أن يدرك ماهية الشيء وأن يعطى لها صياغة مقبولة فى قالب الحروف والمقاطع الصوتية[١] .

---

(٢) فيلسوف يونانى من القرن الخامس ق . م . وهو أحد أبطال افلاطون فى محاوراته

(١) علم النفس اللغوى د . حنفى بن عيسى — الشركة الوطنية للطبع والتوزيع الجزائر ص ٢٣ .

« وقد انبثق هذا الحوار عن نظريتين فى أصل اللغة هما النظرية التوقيفية والنظرية الاصطلاحية ، أما الأولى فقد دافع عنها قراطيل ، لأنه انتهى إلى القول متأثرا برأى هيرقليط (٥٧٦ – ٤٨٠ ق . م) بأن الأسماء صادرة عن قوة الهية فهى إذن وقف على مسمياتها . وأما الثانية فقد دافع عنها هرموجين ، متأثرا هو أيضا بالفيلسوف ديمقريط من القرن الخامس ق . م . الذى كان يرى أن وضع اللغة إنما هو مسألة اتفاق بين الناس وتواضع فيما بينهم ولا دخل فيها للقوة الإلهية »[٢] .

على أن سقراط وكذلك أفلاطون قد وقف كل منهما موقفا وسطا فمن المسلم به أن هناك علاقة وطيدة بين الاسم والمسمى أى أن الأول وقف على الثانى ، ولكن هذا الحكم لا يصح إلا إذا كان الاسم مناسبا أى موضوعا على شاكلة المسمى ليعبر عن ماهيته . ولا ينبغى كذلك أن ننسى أن الواضع قد يخطىء وبالتالى فان الأسماء التى يضعها قد لا تنطبق على مسمياتها فإذا قيل بأن القوة الإلهية هى التى تضع الأسماء وهى معصومة من الخطأ – فلنا أن نتساءل حينئذ لماذا يقع الناس فى الخطأ مادامت القوة الإلهية هى التى تضع الأسماء ؟ الا يوجد من الأسماء ما يدل على هذين معا بحيث قد يلتبس الأمر على المخاطب فلا يدرى من منهما المقصود ؟ وهل يعقل أن تقع هذه القوة الإلهية فى تناقض ؟ أن الجواب على هذه الأسئلة ليس بالهين والاحسن أن نتساءل ما الحكمة من وراء وضع الأسماء ؟ ان الحكمة هى تعليم الناس وارشادهم إلى وجه الحقيقة لأن الإنسان إذا عرف الاسم فقد عرف الشيء الذى يدل عليه ولكن لا ينبغى أن نركن دائما إلى الأسماء لأن

---

(٢) المرجع السابق ص ٢٤ .

وضعها قد يكون مبنيا على خطأ فى إدراك ماهيتها . ولهذا علينا أن نرجع دائما إلى الأشياء بالذات وأن تكون عليها العمدة إذا حدث سوء تفاهم .

وشبيه بالآراء السابقة ما ذهب إليه بعض أئمة العربية ممن كان يرى بأن اللغة الهام وتوفيق من عند الله . ولعلهم تأثروا فى ذلك بكون اللغة العربية هى لغة الوحى . ويمثل هذه النظرية ابن فارس المتوفى (عام ٣٩٥ هـ) إذ يقول : « ان لغة العرب توقيف ودليل ذلك قوله جل ثناؤه . (وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا انك أنت العليم الحكيم .

قال يا آدم أنبئهم باسمائهم قال ألم أقل لكم أنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدى وما كنتم تكتمون « صدق الله العظيم » - سورة البقرة آية (٣٣/٣١)[١] .

فكان ابن عباس يقول : « علمه الأسماء كلها وهى هذه التى يتعارفها الناس من دابة وأرض وسهل وجبل وجمل وحمار وأشباه ذلك » . ونجد فى المقابل أن ابن جنى المتوفى (٣٩٢ هـ) كان يقول بأن اللغة اصطلاح وتواضع . « إذ يقول هذا موضع محوج إلى فضل تأمل ، غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف إلا أن أبا على رحمه الله (يعنى أبا على الفارسى أستاذه) قال لى يوما : هى من عند الله واحتج بقوله تعالى : « وعلم آدم الأسماء كلها » .

---

(١) الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها ص ٣١ . ابن فارس وانظر . الخصائص . ابن جنى ص ٤٠ وما بعدها جـ ١ .

كما ذكرنا فقد كان رأى ابن جنى أن اللغة هى تواضع واصطلاح لا وحى وتوقيف إذ يقول : « وذلك بأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا فيحتاجوا إلى الابانه عن الأشياء والمعلومات فيضعوا لكل واحدة منها سمة ولفظا إذا ذكر عرف به مسماه ليمتاز عن غيره ويغنى بذكره عن احضاره إلى مرآه العين . فيكون ذلك أقرب وأخف وأسهل من تكلف احضاره لبلوغ الغرض فى ابانة حاله »[1] .

وذهب البعض إلى أن أصل اللغات كلها إنما هو من الأصوات المسموعة كدوى الريح وخرير الماء ونعيق الغراب وصهيل الفرس إلخ وخلاصة رأى هؤلاء أن الواضع أخذ بعين الاعتبار مسألة مشاكلة الألفاظ لمدلولاتها من حيث الصوت[2] .

وأن البحث عن أصل اللغة قد أثار كذلك اهتمام مفكرى القرن السابع عشر والثامن عشر ونجد أن المفكر الفرنسى روسو[3] (١٧١٢ - ١٧٧٨) يفترض أن الرجال الأوائل الذين عاشوا على سطح المعمورة اجتمعوا فيما بينهم قصدا أو عرضا ليصطلحوا على تسمية الموجودات وليس من المستغرب أن ينتهى روسو إلى مثل هذا الرأى المتعلق باتفاق الناس واجتماع كلمتهم لوضع المصطلحات لأن هذا الرأى ينسجم تماما مع نظريته الشهيرة التى تعرف بالعقد الاجتماعى على أنه من الصعب علينا اليوم أن نتصور كيف كان أولئك الرجال لا ينطقون ثم شعروا ذات يوم بالحاجة إلى الكلام فاتفقوا فيما بينهم على أن صوتا معينا يتلفظون به سينصرف إلى شىء خاص دون

---

(١) الصاحبى فى فقه اللغة العربية وسنن العرب فى كلامها ص ٣١ . ابن فارس وانظر الخصائص جـ ١ ص ٤٤ : ابن جنى

(٢) الخصائص جـ ١ ص ٤٦ ، ٤٧ : ابن جنى

(٣) محاضرات فى علم النفس اللغوى : د . حنفى بن عيسى

غيره .

أما المفكر الفرنسى كونديالك[4] (١٧١٥ - ١٧٨٠) فقد تصور حالة امرأة ورجل لا ينطقان ، وبين كيف أن الظروف تؤدى بهما بصورة طبيعية إلى ما يشبه الكلام : فإذا شعر احدهما بهيجان أو عاطفة أو حاجة قوية أو غير ذلك من الدوافع ، فانه يأخذ فى الصراخ والقيام بحركات واشارات مختلفة فإذا تكررت نفس الحركات والأصوات وارتبطت فى ذهن المستمع بالأشياء المومأ إليها فان الأصوات لن تلبث أن تحل محل الايماء باليد وأن تغنى عنه . ولئن كانت قدرة هذين الشخصين على تنويع الأصوات محدودة فإن اولادهما لا شك أقدر منهما على الاتيان بمختلف الأصوات اللغوية وهكذا فبالتدريج تتألف مفردات ويتزايد رصيدها جيلاً بعد جيل إلى أن تتشكل من مجموعها اللغة .

وخلاصة رأينا أن اللغة توقيفية اصلاحية فهى كما قال ابن فارس توقيفيه فى بداية عهدها ثم بعد أن تطورت الحياة سايرت اللغة هذا التطور فكان لابد من التواضع والاصطلاح ، وهنا نتفق مع ما قال به ابن جنى من علماء العرب وغيره من علماء الغرب مثل رسو وكونديالك بأن اللغة ظاهرة اصطلاحية يخترعها الإنسان فى المجتمع فى المجتمع الذى يعيش فيه طبقا لقدرة مخلوقه الأعضاء والاعصاب تميز الإنسان عن سائر الحيوان والكائنات الأخرى هى إذن نشاط فكر .

وظاهرة اجتماعية تلازم البشر وتحيا حياتهم أى أنها تسير على سنة التطور الذى يقوى البشر فنجد هناك عصوراً تمتاز بالحضارة والازدهار وأخرى بالتخلف والتقوقع ، وتكون اللغة هى المرآة التى

(٤) المرجع السابق

تعطى الصورة الحقيقية كهذه الحالات ، وبهذا نجد أن اللغة من أهم شعب الدراسات الإنسانية حيث هى المعبر الحقيقى عن آمال الشعوب وآلامها ورقيها وازدهارها عن نهضتها وحضارتها .

اللغة والفكــر

سبحان الذى منح الإنسان عقلا يفكر به ويدبر وأودعه جهاز يفصح به ويبين . أن تحديد الروابط بين الكلام المسموع وبين الفكر الهائمة فى آفاق النفس البشرية ، ما يزال يعتبر من أشد مباحث علم اللغة تعقيداً وأكثرها طرافة فى آن واحد ونحن نعلم أن اللغة ما هى إلا رموز صائته يحدد بها الإنسان تجاربه الحسية أو المعنوية ، ولما كانت اللغة هى الوسيلة التى يعبر بها الإنسان عن أفكاره وما يدور بخلده وهى الوسيلة للتفاهم والتعامل مع أفراد المجتمع ولما كان الفكر المعبر عنه بهذه اللغة فى تغير مستمر نتيجة للمؤثرات الخارجية ونتيجة للتقدم العلمى والتقنى وتطور ورقى المجتمعات وظهور المخترعات فلابد أن تساير اللغة تطور هذا الفكر الذى تعبر عنه ، إذن فعلاقة الفكر باللغة علاقة وطيدة ويمكنا القول هما وجهان لعملة واحدة يقول العالم دولاكروا « ان الفكر يصنع اللغة فى نفس الوقت الذى يصنع فيه من طرف اللغة »[1] .

كما نعلم أن اللغة هى عبارة عن نسق من الاشارات يمكن أن يستعمل للتواصل أو بمعنى آخر هى تلك القابلية التى يتوفر عليها الإنسان لاختراع الرموز بكيفية معتمدة . نجد هنا أن اللغة خاصة بالانسان وتختلف عن لغة الحيوان إذ يستخدم الحيوان الاشارات فى توصله مع الحيوانات الأخرى .

أما الفكر ، فهو ذلك الوعاء الذى يحوى التصور والتخيل والذاكرة والذكاء ، ومحرك الفكر هو الذكاء ، والذكاء عند الانسان لا يبلغ

---

(١) محمد عباس نور الدين : الفلسفة ص ٦٤ .

درجة الكمال إلا عندما يصبح عقلا ونشاطا تجريديا يستعمل المفاهيم والتصورات بواسطة اللغة . فالفكر لا يستطيع أن يعبر عن شيء إلا بواسطة اللغة . لأن الله منح الانسان فكرا وجهازا لغوياً ، فوظيفة الفكر التفكير ووظيفة الجهاز اللغوى النطق والتعبير ولا يكون ذلك إلا بلغة .

لقد اختلف الباحثون والفلاسفة فى تعريف اللغة ، فعرفها الفيلسوف (لالاند) بأنها (جملة من الاشارات يمكن أن تكون وسيلة للاتصال) وهذا التعريف يجانب الحقيقة لأن الاشارات وحدها لا تكفى للتعبير عما يدور بخلد الانسان ، ونجد أن الحيوان يستعمل الاشارات فى التعبير عن أحواله ، وقد اكتشف «فون فريش»[1] اشارات النحل والتى تتمثل فى رقصات تشير بها إلى مكان الغذاء الذى تكون قد اكتشفته ، من هنا تكون للحيوانات اشارات ورموز نابعة من الغريزة ، ولكن الانسان له لغة يكمن وراءها الفكر وهو محرك الانسان ، والغريزة وهى محرك الحيوان .

وقد عرف ابن جنى اللغة فقال : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم[2] » وهذا تعريف دقيق يتفق فى جوهره مع تعريف المحدثين للغة ، فهو يؤكد الجانب الصوتى للرموز اللغوية ، ويوضح وظيفتها الاجتماعية وهو التعبير ونقل الفكرة فى اطار البيئة اللغوية ، وتؤدى وظيفتها فى مجتمع معين ، ولكل قوم لغتهم التى يعبرون بها عن أغراضهم .

---

(١) حياة وموت النحل Von frish. vie et moevdes a leilles ص ١٥٩ .

(٢) انظر الخصائص : ابن جنى جـ ١ ص ٣٣

فالالمانى يستعمل الالمانية ويتفاهم بها مع مجتمعه ، والعربى يستعمل العربية للتفاهم والتعامل مع افراد بيئته .

فاللغة تختلف من مجتمع لآخر ، وطريقة التفكير تختلف كذلك من بيئة لآخرى وبعد فاننا سنناقش علاقة الفكر باللغة .

يتبين لنا من الناحية المبدئية أن التفكير سابق على اللغة ، فكثيرا ما تنبثق الفكرة فى اذهاننا ، ونبقى نبحث عن العبارات التى تؤديها كما أن استعمالنا لأكثر من لغة واحدة للتعبير عن المعنى الواحد يكشف لنا عن أسبقية الأفكار بالنسبة للوسائل اللغوية التى نعبر بها .

ونجد أن سلوك الصم والبكم ينم عن تفكير سليم يتضح معه أن الانسان بامكانه ان يستعمل اشارات للتعبير عن أفكاره ، ولكن الانسان استعمل جهازه الصوتى لأنه الوسيلة الوحيدة التى بواسطتها يستطيع التعبير ، فالإنسان البدائى قد ترك التعبير بواسطة الاشارات لأنه اتفق ان التعبير بواسطة الجهاز الصوتى أفضل وسيلة ، إذ لا يستطيع الإنسان أن يعبر بالاشارة خاصة فى الظلام .

ولقد منح الله الانسان جهازا صوتيا مميزا عن سائر الحيوانات ، فمهما بلغ رقى الجهاز الصوتى لدى الحيوانات فانه لن يصل إلى حد النطق والكلام ومما حاولت بعض القردة أو أنواع الشمبانزى أن تصدر أصواتا فهى بالتالى عاجزة عن الكلام والنطق . ولقد عرف ارسطو الانسان بانه حيوان ناطق وفسر الناطق بالمفكر ، وهنا نميز بين اشارات الانسان والحيوان فنجد الاشارات عند الانسان ناتجة عن فكر فهو يعرف إلى ماذا يشير وعن ماذا يعبر بالاشارة ، أما الحيوان فالاشارة

عنده ناتجة عن اندفاع غريزى ، ولقد أجرى (فون فريش)[1] تجربة مع النحل حيث وضع سكرا حلو المذاق فوق أحد أعمدة اللاسلكى كانت توجد عند أصله خلية نحل فاكتشفت بعض النحلات ، هذا السكر فرجعت إلى الخلية حيث قامت بالرقصات الدالة على اكتشافها لهذه المادة الحلوة اللذيذة .

لكنها لم تتكمن من أن توضح للعاملات الاتجاه الذى يوجد به السكر ، فاتجهت إلى نواحى مختلفة باستثناء أعلى العمود .

وهذا يدل على أن النحل عجزت عن التعبير عن مكان السكر وابلاغ بقية النحل بذلك وهكذا نجد أن اللغة هى الوسيلة الوحيدة للتعبير عن الفكر ، لكن اسبقية التفكير من الناحية الزمانية لا تقتضى اسبقية من الناحية العملية بالنسبة للفرد الذى يعيش فى وسط اجتماعى ولا نستطيع أن تحدد فاصلا زمنيا بين اللغة والفكر فالطفل يتعلمها فى آن واحد وهو يكتشف أفكاره فى العبارات التى يستعملها . وكذلك الشخص السوى الكبير فانه بعد أن يتعلم اللغة فلا يستطيع أن يفكر بدون لغة فاللغة للتفكير مثل الدخان الذى يدل على وجود النار ، بل أنهما متداخلان يضم أحدهما الآخر ، فإذا كان المعنى يؤخذ من العبارة فان العبارة ليست إلا وجودا خارجيا للمعنى .
إذن فليس التفكير ظاهرة داخلية كما يزعم البعض ، والذى يوهمنا بوجود تفكير بدون لغة إنما هى الأفكار التى يمكن استحضارها أثناء الصمت . والواقع أن هذا الصمت الظاهرى إنما هو كلمات والفاظ ، ولقد ذهب واطسن[1] إلى التوحيد بين اللغة والفكر فهو يرى أن الفكر

(١) نفس المرجع السابق .
(١) التعبير والتفكير ص ٢٠٤ . شوشار .

ليس شيئا أكثر من الكلام الذى بقى وراء الصوت ، إنه كلام الحنجرة لا الصوت . وعندما يفكر الانسان فانه يتكلم بالرغم من أن هذا الكلام لا يسمع .

واقول ان الانسان لا يمكن أن يفكر بدون لغة أياً كانت هذه اللغة وليس هناك أدنى شك بأن التفكير فى أغلب الحالات يقتضى استعمال اللغة .

أما «سابير» فلاحظ أن أشكال أو صور لغتنا تهينا سلفا بعض أشكال الملاحظة والتأويل ، أن علينا أن نتعلم فى كثير من الحالات ان نكافح مقتضيات اللغة فاننا عندما نستعمل التعبير (العشب يتموج بالنسيم) أو الاحتكاك يخفف حركة النسيم فاننا نقع فى خطأ تشخيص أو تجسيد كلمات لها هذا المعنى ، وبياجه لا حظ هو الآخر لدى الاطفال ميلا إلى تشخيص أشياء جامده والتحدث عنها كما لو أنها أشياء حية وهو يرى أن هذا الميل « التجسيدى » ميل عام لدى الأطفال لا يتغلبون عليه إلا بالتدريج ووبياجيه يعترف هنا بأثر العادات اللغوية فى هذا الموضوع فعندما نقول « الشمس تشرق أو تغرب » وعندما نقول ماذا تقول الامواج الثائرة أو نقول هي ونحن نتكلم عن الباخرة مثلا فانه من الواضح اننا نشجع اطفالنا على التعبير عن هذا الميل التشخيصى ، ووجود هذا الدليل أدى ب (ماكس مللر) إلى اعتبار الميتولوجيا أى الخرافة « مرضا لغويا » فعندما نقول أن الشمس تحاول اختراق الغيوم ، وأن الرياح تهز الاشجار ، وأن الاشجار تنحنى تجاه الرياح فاننا نقع فى عادات لغوية تهيئنا لتشخيص هذه الاشياء الجامدة ، وهذا ما يؤدى مباشرة إلى نمو الاساطير .

وقد ذهب (بندكت)[1] إلى أن هناك عدة فرضيات لتعليل أصول الاساطير ولكنه لم يتوصل إلى أى فرضية مرضية تماما ، ومهما يكن فان اللغة تؤثر فى طبيعة الفكر كما أن الفكر يؤثر فى طبيعة اللغة ، واننا لن نصل إلى تقرير أى من اللغة أو الفكر قد سبق الآخر ولكن الصواب أن الفرد الذى يولد فى محيط له ثقافة خاصة ، سيفكر بالاعتماد على مفردات تتصل بوسيله التعبير الشائعة فى جماعته ، وان طبيعة تفكيره بالتالى ستكون متأثرة بذلك فنحن عندما نريد دراسة الطريقة التى يفكر بها أى شعب من الشعوب فاننا ندرس لغة هذا الشعب .

يقول دونلاب : « عندما ندرس بنية اللغة فى شعب ما فإننا ندرس صور وطرائق تفكيره ، وعندما ندرس مفرداتها فاننا نكتشف نماذج مميزاته ، فإذا زعمنا بأن اللغة هى تبلور فكر الشعب فان قولنا هذا بعيد عن أن يكون خلاف الحقيقة ، ودونلاب يقدم لنا هنا حقيقة فالفروق الموجودة بين مفردات الشعوب تلقى بعض الضوء على ثقافاتهم انه ليس من الممكن فى بعض اللغات مثلا أن تميز بين كلمتى (Tuer) قتل بلا تعمد) و (assasiner) (قتل بتعمد) فالجماعات الأخرى البعيدة عن فرنسا المهم لديها هو النتيجة سواء كان القتل عمدا أو بغير عمد .

وقد زعم بعض علماء النفس أن لغات البدائيين فقيرة بالكلمات المجردة وقالوا من حقنا القول أن تفكير هؤلاء محصور بالتشخيص وانهم ليسوا قادرين على التجريد ، ولكن إذا امعنا النظر فى هذه العبارة نقول أن نقص بعض الكلمات ناشيء على الارجح على أن هؤلاء الناس لا يهتمون كثيرا بالمجردات لا لأنهم عاجزين عن بلوغها ، ولقد اثبتت

---

(١) علم النفس الاجتماعى د . حافظ الجمال ص ٧٣ .

التجربة التى قام بها علماء النفس بين بعض القبائل الهندية ، أن لغتهم تملك كلمات مثل (أبى) ، (أبوك) (أبوه) ولكن لا يوجد كلمة للدلالة على الأب وكان الشخص المسئول قادرا تماما على فهم فكرة الأب وقدم كلمة تؤدى نفس المعنى ، من هنا يتبين لنا أن الفكر يخدم اللغة واللغة تخدم الفكر والفكر يكمل اللغة واللغة تكمل الفكر ، أما القول بأن فقدان بعض الكلمات يقابل بعض الثغرات العقلية فان كلام بعيد عن الصواب ، فاللغة البلغارية كما يقول فندرس ليس فيها مصدر الفعل ومع ذلك فانه لا يخطر ببال أحد أن يستنتج من ذلك أن البلغاريين لا يتمتعون بملكه ادراك العمل الذى يدل عليه الفعل بصورة مجردة .

وبعد فاننى استطيع القول أن الفكر يسبق اللغة من الناحية الزمنية فالطفل يولد يفكر ثم يكتب اللغة ولا يولد بلغة ثم يكتسب الفكر ، والفكر هو الذى يؤهله لاكتساب اللغة . وأن العلاقة بين الفكر واللغة هى علاقة تبادل التأثر والتأثير وكل منها يكمل الآخر فهما وجهان لعمله واحدة فإذا فقد الانسان القدرة على التفكير فقد فقد القدرة على التعبير ، فالفكر ينمو ويرتقى وبذلك تنمو وترتقى معه اللغة فكل تطور فى الفكر يصاحبه تطور فى اللغة .

الكـلام والفكـر

إن تحديد الرابطة بين الكلام المسموع والفكرة التى مازالت هائمة فى آفاق النفس البشرية ، ما يزال يعتبر من الأمور المعقدة فى مجال علم اللغة ، وأكثرها جدة فى آن واحد ، وقد علمنا أن اللغة هى عبارة عن رموز صائته يعبر بها الإنسان عن تجاربه ورغباته الحسية والمعنوية ، وقد اكسبها الإنسان دلالة معينة(1) . فإذا نظرنا إلى ذلك من زاوية الألفاظ المفردة فقط ، فإننا نجد أن كلا منها هو مجرد علامة مميزة لمعنى ما يريده المتكلم بهذه اللفظة . ونجد الإنسان عندما يبتدع هذه الألفاظ ينوعها بناءً على ذلك تتميز بين الأشياء والظواهر ثم يختزنها لتكون فى النهاية مؤنته من المعرفة ، وعدّته لتبادل ما يعرف مع غيره من ابناء مجتمعه(2) . والذى يدفع الانسان إلى ذلك فى الحقيقة هو أن يعيش فى مجتمع هو بحاجة إلى يتبادل معه الأخذ والعطاء فى الماديات والمعنويات جميعاً . وقيمة اللفظة فى الحقيقة هو بمقدار ما تقدمه هذه اللفظة من وضوح وانتشار بين الناس .

وكما يقول الدكتور ظاظا « يتبين أن اللفظة فى الكلام تشبه إلى حد كبير ورقة النقد فى الاقتصاد »(3) .

لابد أن تغطيها قيمة اقتصادية من الذهب أو غير ذلك من القيم المصطلح عليها وبدون هذا الغطاء فإن الورقة النقدية لا تخرج عن أن تكون قصاصة من الورق لا حول ولا قوة لها ، وكذلك فإن اللفظة أو

---

(1) الخصائص جـ ١ ص ٣٣ : ابن جنى

(2) اللسان والإنسان ص ٦٩ . د . حسن ظاظا .

(3) المرجع السابق ص ٦٩ .

الكلمة المسموعة أو المكتوبة التى لا تدل على دلالة معينة والتى لا تعطى معنى معيناً فإن هذه اللفظة لا قيمة لها فى المجتمع تماماً كالورقة النقدية التى تخلو من الدعم . فهذه اللفظة أو تلك الكلمة تظل بالنسبة للأفراد مجرد ضوضاء لا تولد فى العقل شيئاً .

فالمحتوى الفكرى لالفاظ اللغة يظل ملكاً خاصاً لمن يستعملون هذه اللغة فقط وهذا يختلف عن الفكر المطلق المستقل عن اللفظ فهو ملك للإنسانية جميعا[1] . ونجد أن قيمة اللفظة تزداد كلما كانت دلالة تلك اللفظة شاملة عامة ، يتداولها غالبية الناس ، فلو اخذنا مثلا كلمة (المعبد) فإن هذه الكلمة رمز لمكان تقام فيه الطقوس والشعائر الدينية من أى نوع كان . ولكن إذ قلنا كلمة (الكعبة) فإنها لا تدل إلا على بناء بعينه مقدس عند المسلمين ومكانه مكة المكرمة .

وإذا نطقت بكلمة (البيعة) فبالرغم من أن دلالتها ليست كالكعبة إلا أنها أضيق دلالة من كلمة المعبد ، معنى لا تدل إلا على المعبد الصغير للمسيحيين وحدهم ، وقد توسع فيها العرب فأطلقوها على المعبداليهودىالصغير أيضاً . يقول الفيروز ابادى فى القاموس المحيط : « والبيعة بالكسر متعبد النصارى[1] » ، وقد قال الزبيدى فى تاج العروس : « وقيل كنسية اليهود » .

نجد هنا أن الأصل فى وضع الألفاظ للدلالة على « معقول » أو « متصور » يتدرج فيه ما لا يتناهى من المحسوسات أو الاعيان . فإن كلمة رداء مثلا وهو ما يلبسه الانسان ليستتر به نفسه ، مهما اختلف طولا واتساعاً ، ومهما تعددت الوانه وطرق تفصيله ومادته يستوى فى

---

(١) اللسان والإنسان ص ٧٠ د . حسن ظاظا .

(١) انظر القاموس المحيط فى مادة بيع . الفيروزبادى .

ذلك الجلباب والعباءة والمعطف والجبة والقميص والدشداشة ، والنفنوف ، وغيره ولكى تكون الكلمة بهذا الاتساع ينبغى أن تكون التجربة الحسية التى استحدثت منها قيمتها وكيانها بوصفها وحدة لغوية تجربة متكررة على عينات كثيرة فيها من التشابه ما يكفى لجمعها تحت رمز واحد .

ومع ذلك يظل الاختلاف فى الجزئيات والتفاصيل قائماً وممكنا فى الأفهام فهو الذى يضمن للكلمة مرونتها فى الدلالة وصلاحيتها للاحاطة بقدر ما من المعرفة الإنسانية العامة . وبهذه الطريقة يصبح التفاهم ممكناً بين الناس بعضهم وبعض . وإذ كانت مجموعة الفاظ لغة من اللغات هى تلك الرموز الاصطلاحية الدالة على المتصورات المعروفة لدى أهل تلك اللغة فإن اللغة نفسها – أى الكلام المركب المفيد . هو التصور الشفوى للنسب القائمة بين هذه المتصورات بعضها وبعض[1] .

وأود أن أوضح هنا أن الدراسة الحديثة فى صلة الفكر اللغوى بالادراك العقلى قد حظيت بعناية علماء النفس والفلاسفة أكثر مما حظيت به هذه الدراسة عند علماء اللغة ، إذ أن عملية تعلم اللغة لا تبدأ عند الطفل من نقطة الصفر لغوياً وإنما تبدأ بسماع الطفل للغة مستقرة لها مدلولات مسبقة ، ونعلم جيداً أن المستوى الفكرى والعقلى واللغوى للطفل ينمو من سن إلى سن حسب تطوره الاجتماعى والتعليمى .

---

(٢) انظر تاج العروس فى مادية يبع . السيد مرتضى الزبيدى .

(١) اللسان والإنسان ص ٧١ . د . حسن ظاظا .

وبعد ، فهناك سؤال وهو : هل يمكن أن يوجد الفكر دون أن يوجد الكلام ؟ . وبعبارة أخرى : أليس الكلام والفكر كلاهما مظهرين لعملية نفسية واحدة ؟ .

يقول سابير : أن للإجابة عن هذا السؤال يجب أن نفهم بوضوح ومنذ البداية أنه حتى مع التسليم بأن الفكر فى عملياته المختلفة فى حاجة إلى رموز حية يتعلق بها ، فى حاجة إلى لغة على وجه التحديد . فإنه لا ينبنى على ذلك أن يكون الكلام دائماً وأبداً صورة لعملية من عمليات الفكر فى معناه الفلسفى الأعلى[1] .

وقد أوضحت سابقاً أن العنصر اللغوى الأساسى فى الكلام هو اللفظة الدالة على متصور . وليس معنى هذا أن اللغة تستعمل فقط فى التعبير عن متصور بالمعنى الفلسفى . فإننا فى الحياة اليومية العادية لا نهتم بالمتصورات قدر اهتمامنا بالواقع الملموس ، بالأمور الجزئية القائمة أمامنا وبالنسب التى تنشأ بينها . واننى عندما أقول تناولت افطاراً شهياً هذا الصباح ، فاننى لا اتجشم عذاب الاجهاد العقلى الذى تحتاج إليه عملية من عمليات الفكر . وبالعكس اشعر بسرور من يستعيد ذكر طيبة يسوقها فى عبارة مألوفة يسيرة . وبالرجوع إلى ألفاظ هذه الجملة نجد أنها فى الحقيقة تعبر عن متصور أو عن نسبة بين متصورين أو عن الاخرين جميعاً . ومع ذلك فالجملة بعيدة كل البعد عن أن يكون لها جو المتصورات المنطقية والنسب والقضايا القائمة بينها ونحو ذلك من أشكال الفكر الفلسفى .

أقول أنه يمكننا أن نعتبر اللغة اداة صالحة للتعبير فى كل الظروف النفسية والفكرية ابتداء من الواقع البسيط فى الحياة العادية إلى الفكرة

---

(١) Fdwaod sapir, Le Langauge p. 22.

الفلسفية فى كل تعقيداتها وعمقها . وفى كل هذه الحالات التى لا حصر لها ومهما اختلفت المواضيع ومهما اختلفت المستويات الفكرية فان مادة التفاهم والجهاز اللغوى المطالب بالتعبير عن هذه المواضيع فانه يبقى واحداً على الدوام .

وفى علاقة الفكر باللغة يسأل الدكتور كمال يوسف الحاج فى كتابه « فى فلسفة اللغة » هذا السؤال : هل بإمكان الالفاظ أن تدل تمام الدلالة على المعانى الداخلية أو أنها تقصر عن تصريف كل ما فى الوجدان ؟[1] عندما أقول (أحب) هل تستطيع هذه الكلمة أن ترسم باحرفها الأربعة جوهر الحالة النفسية التى يتناغم فيها المحب مع قلب آخر ؟

واضح هنا أن العلاقة محصورة بين اللغة ومواجيد الباطن ، وأن القضية الأولى (وهى : هل اللغة توقيف أم اصطلاح) لم تنتف بهذا السؤال الثانى . إنما أرجىء حلها فقط ، فقد انتقلت من البحث فى أصول الشيء إلى البحث فى أصول الوجدان . ومعلوم أن الآراء ، لم تجتمع فى هذا المجال على موقف واحد . منهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ لا يفيدنا كل الافادة عن حقيقة الوجدان . بذلك تصبح اللغة واسطة لا غاية (لوك) ومنهم من آمن بأن العلم بمواقع الألفاظ يفيدنا عن حقيقة الوجدان ، لأن اللفظ يعبر عنه تعبيراً كاملاً ، بذلك تصبح اللغة غاية لا واسطه (دى بونالد) ومنهم من وقف بين بين (ليبنتز)[2] .

---

(١) فى فلسفة اللغة : ص ٢٣ د . كمال يوسف الحاج .

(٢) اللسان والإنسان ص ٧٨ - ٧٩ . د . حسن ظاظا .

ولو استعرضنا معاً آراء العالم الانجليزى لوك وهو من أشهر العلماء فى القرن السابع عشر نجد أن لوك لاحظ الرابطة المتينة بين اللغة والفكر ، واستطاع أن يدرك أن العلاقة بينهما إنما هى علاقة من الداخل ، ولا نستطيع أن نفصل بين هذه العلاقة بحال من الأحوال .

ونلخص نظرته فى العلاقة بين اللغة والفكر كما يلى : « إن العلاقة التى تربط الفكر بالكلمة هى علاقة صحيحة ، الفكر والكلمة جسد واحد . لا يحصل فكر بدون ان تحدث لغة ولا تحدث لغة لا تكون ذاتها فكراً »[1] .

واستناداً إلى ذلك يقول (دى بونالد) اللغة ليست من خلق البشر الناس لم يتفقوا فيما بينهم على أن يكون ثمة لغة فكان هناك لغة .. وهذا التفسير بعيد كل البعد عن الحقيقة . ذلك أن الإنسان لا يقدر على خلق شيء ما لم يكن لديه فكرة صريحة عنه[2] . ولكى يحصل على هذه الفكرة الصريحة ينبغى له أن يعبر عنها . إذن اللغة واجب وجود لمنشأ اللغة ذاتها . مما يفيد أن اللغة ليست من صنع البشر انها هبة من الله .

لقد أعطى الله الإنسان قوة النطق والتعبير منذ أن سوى انساناً (خلق الإنسان علمه البيان) . منذ أن تحرك الحركة الأولى .

لذا فإننا نقع فى الخطأ عندما نقول أن الفكر سابق للكلمة . الفكر ذاته كلمة والإنسان لا يفكر إلا لأنه إنسان متكلم ، فنحن نتحدث إلى انفسنا حتى عندما يكون تفكير الإنسان بينه وبين نفسه .

---

(١) اللسان والإنسان ص ٦١ د. حسن ظاظا .
(٢) المرجع السابق ص ٨١ .

والفكر كما قال الدكتور كمال الحاج : « تعبير وراء الشفتين الصامتين ، الفكر حديث باطني ، والحديث تفكير بصوت عال »[1] .

وبعد هذا العرض لآراء العلماء حول العلاقة القائمة بين الفكر واللغة ، أقول أن الكلام بالنسبة للفكر هو عملية مصاحبة له غير خالقة له ، هو رفيق لهذا الفكر يعمل بدأب وتواضع على أن يرتفع إلى مستواه .

وإذا سألنا أنفسنا هل نستطيع أن نفكر بدون لغة ، بدون أن يستحضر الإنسان في ذهنه ألفاظاً معينة ؟ في الحقيقة ليس من السهل على الإنسان أن يعقل ذلك لأن اللغة للفكر هي كالأرقام للحساب ، فلا تتم عملية حسابية بدون الأرقام ، كذلك لا يمكن تصور فكر بدون ألفاظ .

(١) في فلسفة اللغة - ص ٢٤ د . كمال يوسف الحاج .

تطور اللغة مع تطور الفكر

قلنا أن اللغة هى وعاء الفكر تحفظه وتعبر عنه وترقى برقية ، وسنحاول هنا اظهار العلاقة الوطيدة بين الفكر واللغة حيث نجد أنه عندما ينمو الفكر ويتطور فانه سيأخذ بيد اللغة معه وسيطورها لتكون هذه اللغة خليقة للتعبير عن هذا الفكر السامى المتطور . أن الفكر هو ذلك السر البشرى المتطور دائماً المتطلع إلى الكمال هذا الفكر يحتاج فى رحلته هذه إلى لغة لتعبر عنه إذن لابد لهذه اللغة من السمو والتطور إلى الدرجة التى تلتقى فيها مع هذا الفكر . وإن الكلام ظاهرة مرافقة للفكر وسنورد هنا أمثلة لبعض الألفاظ طورها الفكر من الفاظ حسية إلى ألفاظ مجردة وذلك لتعبر عن نموه وتطوره .

لو أخذنا كلمة (المروءة) : أصلها فى اللغة من كلمة المرء ومعناها الرجل المكتمل ، وهذه اللفظة فى معناها الحسى لا تدل إلا على الشخص وهذه اللفظة تدل على ما فى الرجل من صفات مثل — القوة ، الهمة ، الشعور بالرجولة ، والنخوة ، والشهامة ، والامانة وغيرها من الدلالات الحديثة .

وكلمة « الرُوح » : فأصلها من نفس أصل لفظه الريح ، وهو الهواء ، ثم النفس الذى تردده الإنسان فى صدره شهيقاً وزفيراً ، وقد سمى كل ما تحمله الريح وتمضى أن يشمه الإنسان عند التنفس رائحة ، وسميت الراحة لليد لاتساعها وانبساطها . ولما كان تردد الريح فى صدر الإنسان هو أوضح العلامات على أنه حىّ لم يمت ، اشتق من ذلك لفظ الروح بمعنى سر الحياة المجرد المبهم فى الكائن الحى ، ولاشتقاق الروح من الريح جاء لفظها فى القرآن الكريم مستعملاً مع الفعل . نفخ فى قوله

تعالى : « ونفخنا فيه من روحنا »[1] وكلمة « النفس » : اصلها من مادة النفس أى استنشاق الهواء شهيقاً وزفيراً ، ومن ذلك استعملت النفس بمعنى الكائن المحتوى على سر الحياة ، لأنه يتنفس ، ثم سميت المرأة التى وضعت حملها نفساء ، أنه خرجت من بطنها نفس أخرى حية . كل ذلك تطور مع احتياجات الفكر للتعبير ولم ينزل وحيا من السماء على الانسان دفعه واحدة .

ولفظة « العقيدة » وأصلها من الفعل عقد ، وهو أن يربط الإنسان عقدة فى حبل أو قطعة من النسيج ، والعقيدة هى الشيء الثمين الذى يصر ويربط ويعقد عليه الرباط حتى لا يضيع ، وكذلك كان الرجل القديم يعقد خيطاً ، أو خصلة من الشعر أو الصوف ، على اصبعه ليتذكر شيئا هاماً ولا ينساه ، ثم استعملت كلمة العقيدة استعمالاً فلسفياً للدلالة على ما استقر فى قلب الإنسان من فكرة دينية أو سياسية أو اجتماعية ويحرص عليها الإنسان ويتعصب لها ، وكأنها شيء ثمين عقد عليه قلبه حتى لا يضيع .

وكلمة « العقل » بمعنى الربط أو ربط الدابة بحبل اسمه العقال وقال صلى الله عليه وسلم « اعقلها وتوكل » اربطها بحبل وتوكل . والعقال الذى يوضع على الرأس لأنه يعقل «الحطة » ثم نقل من معناه الحسى إلى المعنى الفلسفى وهو القوة الخفية فى النفس البشرية التى تمسك الإنسان فلا يجمح ولا يضل . ويقال فلان عاقل وفلان يعقل ، وعقل الدواء البطن أى مسكه . وكلمة « الشرف » مأخوذة من الشرفة وهى الارتفاع لأن من يقف عليها يشرف على غيرها أن يستطيع أن يكتشف ما دونها . فانتقلت من المعنى الحسى إلى المعنى المجرد ، ومنها

---

(١) اللسان والإنسان . ص ٨١ . د . حسن ظاظا .

الاشراف على البحوث العلمية والإشراف الإجتماعى ونحوها ، ثم اصبحت تدل على مجموع حيثيات بعضها بالنسب وبعضها بالحسب تجعل الإنسان ، معنوياً منزلة ارفع من غيره ونجد مثالاً لتطور الدلالة مع تطور الفكر فى كلمتى « المعروف والمنكر » . فمعناها التجريدى هو الخير والشر ، أما المعنى الحسى المادى القديم لهما ، المعروف ما يعرفه الناس ، والمنكر ما لا يعرفه وفى الحياة البدائية كان الإنسان لا يعرف إلا أهله وذوى قرابته وبنى قبيلته أما ما عدا ذلك فلا يعرفه ولا يطمئن إليه . ومن هنا انتقل معنى الكلمتين إلى المعنى التجريدى فأصبح المعروف والمنكر بمعنى الخير والشر .

من هذه الأمثلة السابقة يتضح لنا أن كل ما فى اللغة من اشتقاق أو توسيع أو تضييق فى الدلالة ، أو نقل لها من المحسوسات إلى معنويا إنما كل ذلك من صنع البشر ، وهذا نتيجة حتمية لتطور الحياة وتطور الفكر ونحوه وبهذا نجد أن اللغة نمت وتطورت مع الفكر لتكون اداته المعبرة عنه ، وفى ذلك يقول سابير : « اننا نفكر دائماً من خلال الفاظ نستحضرها فى اذهاننا »[١] .

ثم يؤكد سابير على العلاقة اللزومية بين اللغة والفكر ، وعموم هذه العلاقة وشيوعها فى النوع الإنسانى على اختلاف اجناسه والوانه ودرجاته الحضاريه إذ يقول : « ان الانسان هو المخلوق الوحيد العاقل المفكر ، تبين لنا إلى أى حد ترتبط اللغة بالفكر ، وإلى أى حد كان المعلم الأول (ارسطو) دقيقاً عندما عرف الإنسان بأنه « الحيوان الناطق » وشرح الناطق بأنه المفكر[٢] .

(١) Edward sapir ie langage . p. 24.

(٢) المرجع السابق .

وفى الحقيقة أن اللغة هى الواقع المباشر للفكر أى أن جوهر الفكرة يعلن عن نفسه بواسطة الألفاظ ، ولا وجود للأفكار خارج نطاق من اللغة ، وأن الاتصال الأبدى بين الفكر واللغة أوجد حالة اعتماد كلى من الفكر على اللغة بحيث أصبح الإنسان غير قادر على جميع شتات الفكر إلا داخل أسوار اللغة وبهذا نجد أن اللغة هى المادة الطبيعية للفكر .

وصدق الله العظيم حيث قال : « خلق الإنسان علمه البيان » .

والبيان هنا هو الأعراب عما فى النفس وعما يدور فى الفكر بواسطة اللغة وهذا يؤكد لنا ما سبق ذكره من العلاقة اللزوميه بين الفكر واللغة .

قيمة الفكر

إن الانسان يتميز كما ذكرت عن جميع الحيوانات الأخرى بالقدرة على التصوير والتجريد والتحليل والتركيب . وإذا نظرنا إلى بعض الطيور والقردة والقطط والكلاب فاننا نجد أن سلوكها ينم عن شيء من الذكاء والفكر ومعنى ذلك أن الفرق بيننا وبين الحيوانات إنما هو في الدرجة وكل ما في الأمر أن التطور الفكرى العظيم الذى حققه الإنسان يدعو إلى الاعتقاد بأن الفرق شاسع بينه وبين الحيوانات في سلم التطور الفكرى ، بحيث أن مجرد المقارنة لا تصح ، والشيء الذى يقلل من شأن التفكير لدى الحيوانات هو أن مظاهره لا تنكشف لنا إلا من الخارج بواسطة تجارب مختلفة وعندما ننظر أحيانا إلى سلوك كلب أو قرد فاننا نحس بأن الشيء الوحيد الذى ينقصه هو النطق وهنا نأتى إلى صلب الموضوع . وهو أن الإنسان دون الحيوانات الأخرى مزود بجهاز يمكنه من توصيل أفكاره إلى غيره من الناس وعلى هذا فلا يجوز الفصل بين اللغة والفكر ، ومن المستبعد جدا أن تحرز البشرية ما أحرزته من التقدم في مضمار الحضارة لو لم يكن لها لغة تخدم الفكر وتقدم له القوالب التى تصاغ فيها المعانى أن اللغة إذن أداة لا غنى عنها من جهتين : أولا أنها وسيلة لابراز الفكر من حيز الكتمان إلى حيز التصريح ، وثانيا فهى عماد التفكير الصامت والتأمل ولولاها لتعذر على الانسان أن يسبر الحقائق إلى عمق أعماقها حينما يسلط عليها أضواء فكره[١] .

إن العلاقة بين الفكر واللغة كما ذكرت آنفا علاقة وطيدة ، فاللغة

---

(١) التعبير والتفكير ، ص ٢٠٤ . شوشار .

تقدم للفكر تعاريف جاهزة ، وتصف الأشياء بخصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها ، وتساعد المفكر فى عمله ، إذ تزوده بصيغ وتعابير معروفة وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسه .

على أنه لا ينبغى من ناحية أخرى أن ننسى . كما يقول (جسبرسن) « أن جماعة من أعمق المفكرين كثيرا ما اشتكوا من أن لغة قومهم كانت فى بعض الأحيان عائقا لهم عن التفكير فى شىء من الأشياء إلى أعمق أعماقه فاللغة بمفرداتها وصيغها الثابتة قد اجبرت الفكر على أن يسلك سبلا مطروقة حتى انهم اضطروا إلى اقتفاء آثار الأولين ، وآل بهم الأمر إلى أن يكون تفكيرهم أشبه ما يكون بتفكير من سبقهم »[1] .

أن هذا القول مقبول ، ولكنه لا يعد اعتراضا بل هو مجرد ملاحظة ثم أنه ليس صحيحا على علاته . فالمفردات والصيغ الثابتة قليلة نسبيا فى اللغة ، ولعل (يسبرسن) يشير بها إلى التعابير النمطية المحفوظة عن ظهر قلب وإلى العادات اللفظية الراسخة ، فهذه التعابير الجاهزة وهذه العادات مفيدة لأنها تجعلنا نتكلم من غير عناء ولا مشقة ولا ينكر أحد أنها قد توقع المتكلم فى الخطأ وتجعله يقول غير ما نوى ، لأنه قد يجد نفسه منساقا بحكم العادة اللفظية لاتمام الجملة على غير ما يقتضيه المنطق إلا أن هذه الحالة نادرة ، وقل أن تحدث فى حالة التفكير لأن المعروف أن الانسان حينئذ يتمهل فى الكلام ويتميز ألفاظه وينتقى تعابيره فهو لا يسرد كلاما محفوظا ، ولا ينساق وراء عادة متأصلة ، بل ينشىء الكلام انشاء ويركبه جملة فجملة ويتردد أحيانا فى ما سيقول ، ويعيد النظر فى ما صدر عنه فيصححه أو يتدارك شيئا فاته .

(١) حياة اللغة ص ٧٠٦ ، يسبرسن .

وهكذا فان اللغة تزود الفكر بقوالب ينطبع فيها وينسبك ، ولولاها ما كان ليخرج من حيز الكمون ولأمر ما سميت لغة الضاد باللغة العربية فهي من الأعراب أي الافصاح عن مكنون الفكر .

السمات المشتركة بين اللغات

ان معظم لغات البشر تشترك فى خصائص معينه وان هناك مفاهيم أساسية مشتركة لدى جميع اللغات ، ولئن صح أن معظم اللغات أصبحت مختلفة متمايزة بعد ما تفرعت وتشعبت وتعددت ، إلا أننا نستطيع القول بأنها ظلت تحتفظ بخصائص ثابته مشتركه هى التى نطلق عليها المعانى الكلية .

نقول إذا كانت هناك خصائص مشتركة بين اللغات لم تتغير رغم التطور فلماذا لم يكشف العلماء عنها حتى الآن ، نقول أن البحث فى هذا الميدان قد تخلف كثيرا ، لأن الشيء الذى كان يهتم به العلماء هو نقاط الاختلاف لا نقاط التلاق ، وسوف أورد هنا بعض الأدلة التى تثبت بالرغم من تمايز الالسن أن هناك امكانية التفاهم بين الشعوب رغم اختلاف لغتهم .

الدليل الأول : أن هناك مفاهيم كونية واحدة ، ذلك أن كافة الناس يسكنون فى كوكب ارضى واحدة ، فمن المتوقع أن نلاحظ نوعا من التشابه بين الالسن أو على الأقل نوعا من التوازى فى تسمية الأشياء ، أى أن كل اسم فى لغة موجود نظيره فى لغة أخرى ، وخاصة منها ما يتعلق بالأرض ، والسماء ، والبرد ، والحرارة والمطر ، والرياح ، والنباتات ، والليل والنهار .. الخ . من الاسماء والمسميات .

والدليل الثانى : وجود مفاهيم بيولوجية واحدة ، وفى هذا المجال يقول العالم الفرنسى مارتيني : « بما أن كافة الناس يسكنون فى كوكب واحد ويشتركون فى كونهم جميعا ابناء بشر -- وهذا الأمر يقضى وجود تشابه بينهم من حيث الذات والصفات ، فمن المتوقع أن

نلاحظ نوعا من التوازى فى تطور جميع اللغات »[1] .

ونستنتج من هذا القول أن هناك مفاهيم بيولوجية مشتركة تتعلق بظروف الحياة على سطح المعمورة وقد لخصها بعضهم فى سبعة ميادين رئيسية وهى : الأكل ، والشرب والتنفس والنوم والافراز ودرجة الحرارة والجنس (ذكر أو أنثى) ويمكن أن يضاف إلى هذه المفاهيم البيولوجية ما يلازمها من سمات عضوية ، فمفهوم الأكل يلازمه مفهوم الاسنان والفم واللعاب واللسان والمعدة والبلعوم .. الخ .

وهكذا نلاحظ أن هناك مستوى بيولوجيا تلتقى فيه جميع اللغات فمن المستبعد مثلا الا تتفق مفاهيم الناس عن مختلف أقسام الشجرة الرئيسية وهى الجذور والجذع والساق والأغصان والأوراق . إلا أن هذا لا يمنع أنك قد تجد لغة تفرق بين العشرات من أنواع الأشجار وتضع لكل منها اسما خاصاً مثل شجرة الزيتون والتين ، والعنب والخوخ والتوت ، والكرز ؛ بينما تجد لغة أخرى افقر منها من حيث المفردات بحيث لا يتوفر فيها سوى ثلاثة أو أربعة من اسماء تلك الأشجار . وبعبارة أخرى فان الظروف الطبيعية التى نعيش فى وسطها توحد بيننا لغوياً إلا أن حضارة كل شعب وتجاربه المكتسبه تباعد بيننا من حيث أساليب التعبير .

والدليل الثالث : قام على وحدة الإحساس والإدراك وقد عبر عن ذلك ابن جنى حين قال : « ان طريق الحس موضع تتلاقى فيه طباع البشر ، ويتحاكم إليه الأسود والأحمر »[1] ورغم ما قد يوجد بين الناس

---

(١) محاضرات فى علم النفس اللغوى د . حنفى بن عيسى ص ٤٤ .

(١) الخصائص : ابن جنى جـ ١ ص ٩٠ .

من اختلاف أو تفاوت فى درجة الإحساس والإدراك وهذا أمر طبيعى فانه ولا شك يوجد حد يستوى فيه الجميع .

وهذا الأمر يكاد يكون طبيعيا ، إذ أنه من المتوقع - مادام التركيب الفيزيولوجي واحدا أن تكون احساسات الناس وادراكاتهم بدورها واحدة ، ولهذا توجد جملة من المفاهيم الحسية الإدراكية المشتركة خذ عن ذلك مثال الألوان : فليس هناك ما يبرهن على أن مفهوم اللون الأحمر عند الهنود وغيرهم من الشعوب ما يخالف مفهومنا عنه ، وكل ما فى الأمر أن كل شعب له عاداته وتقاليده اللغوية الخاصة فى تسمية الألوان ففى العربية نجد أمثال هذه المفردات ، عسلى رمادى ، خرونى بنى كستنانى ، برتقالى ، كمونى ، مشمشى ، سماوى .. الخ . ولكن هذا لا يعنى أن العربى يدرك هذه الألوان على غير ما يدركها الفرنسى أو الانجليزى ، ولكن نقول أن عادات التسمية ليست واحدة ومن هذا القبيل أيضا مسألة ادراك المكان والزمان فما لا شك فيه أن توجد مفاهيم مشتركة بالنسبة إلى المسافات إلا أنك قد تجد كل شعب يقدر المسافات بحسب عاداته اللغوية وتقاليده الحضارية . فالفرسخ والكيلو متر والميل والذراع والمتر والفدان والياردة وحدات قياسيه فيها مدلولات معينة عند أصحابها ولقد يجد الألمانى صعوبة فى تقدير المسافات بالأميال حتى ولو كان يعرف كيف يحولها إلى كيلو مترات ، وما ذلك إلا لأنه اكتسب عادات لغوية معينة ارتبطت بالتجربة والممارسة . إلا أنه إذا عاش فى انجلترا مثلا فيضطر بحكم الحياة الجديدة التى يعيشها ان يربط مفهوم الأميال بالتجربة الشخصية وحينئذ سيدرك المسافات كما يدركها الانجليزى وادرك الزمان تقدم لنا أدلة أخرى عن وجود مفاهيم مشتركة ، فمن المؤكد أن الناس فى جميع الأقطار يدركون المقصود بكلمة الفجر أو الصبح أو الظهر أو المغرب

أو العشاء أو شروق الشمس أو غروبها أو اشتداد الحرارة أو البرودة فكل هذه المفاهيم موجودة فى الأذهان قبل اختراع الآلات الدقيقة التى تقيس الزمن أو الحرارة ، وإذا نظرنا إلى كل شعب على انفراد نجد أن الانجليزى يقول مثلا : مضت عشر دقائق على الثامنة أو بقيت خمس دقائق حتى تبلغ الساعة التاسعة أما العربى يبدأ فى تحديد الساعة ثم الدقيقة .. الخ .

إن هذه الفروق الطفيفة فى التصور لا تمنع من القول بأن هناك مفاهيم ادراكية مشتركة .

الدليل الرابع : ان بالنظر إلى كوننا بشرا ذووى نفوس واحدة فانه من الطبيعى جدا أن تكون لنا مفاهيم نفسية مشتركة ، وأن من يدرس اداب مختلف أمم الأرض يلاحظ بدون شك أن الناس مهما تعددت أوطانهم ، يعانون نفس التجارب الشعورية ويعبرون عن نفس الآمال والأحلام ، فأننا حينما نقرأ قصيدة لشاعر يابانى أو انجليزى أو فرنسى نشعر بنوع من التجاوب العاطفى مع هذه القصائد الشعرية والدليل على ذلك أن عواطف الناس منذ القرون الغابرة هى واحدة لم تتغير لأن القلب هو منبع العواطف لم يتغير على مر الزمان .

وهذا ما يجعلنا نتفاعل ونتجاوب مع ملحمه هوميروس ومع اعتذاريات النابغة الذبيانى ومع فلسفة أبى العلاء المعرى . أقول ورغم مرور السنين واختلاف الأوطان وتطور الحياة فاننا لا نزال نشعر كلما قرأنا آثارهم بأنهم أقرب إلينا من كثير ممن يعيشون الأن عصرنا ومن هم شركاء لنا فى الوطن الواحد .

والدليل الخامس : هو وجود معانى كلية لسانية أى أن اللغات والألسن توجد بينها خصائص كثيرة من التشابه ، ونجد أن علماء اللغة

قد ابرزوا نواحي الاختلاف ولم يهتموا إلا قليلا بنواحي الاتفاق .

والأول ما نلاحظ فى باب الاتفاق ، أن الصوت البشرى هو الوسيلة المستعملة فى التخاطب بدلا من الايماء والاشارة ، وأن الرموز اللغوية (الحروف) فى جميع اللغات محصورة العدد . وأن تلك الرموز تنتظم فيما بينها مقاطع صوتية وكلمات وجملاً وزيادة على هذه السمات المشتركة التى تكاد تكون من البديهيات توجد أيضا مفاهيم لسانية واحدة فى النحو والمفردات والمعانى . ففى النحو لاحظ الباحثون أن مقولات العقل كما حددها ارسطو لها نظيرها فى القواعد النحوية لأغلب اللغات .

إذ أن ما يصدر عنا من كلام يتعلق بالماهية ، أو بالحدث ، فمن توشيح الماهية نشأت التسمية وعن التصريح بما جرى (أو بما حدث نشأ الفعل)[1] . فالاسم والفعل أن من المفاهيم اللسانية العامة ويمكن أن يقال فى مجال الرد بأن بعض اللغات لا توجد فيها أفعال فكيف يصح القول بأن الفعل من المعانى الكلية ، والجواب على ذلك أن الفعل بالتعريف هو ما دل على الحدث مقترنا بالزمان فهذه اللغات التى استغنت عن الفعل ظلت مع ذلك تعبر عن فكرة الزمان . فالجملة الاسمية الآتية « البحر أمامك » لا تشتمل على فعل ، ولكنها تتضمن معناه لأن الظرف (أمام) متعلق بمحذوف تقريره كائن أو موجود وكل من الكلمتين الاخيرتين قد دلت من حيث وزنها وصيغتها الصرفية على زمان الحاضر .

وهناك سمات مشتركة بين اللغات وأهمها وجود الضمائر فيها ، والمعروف أن الضمير ينوب مناب الكلمة الدالة على الكائن ، فنجد أن

(١) ابن جنى الخصائص جـ ١ ص ١١٩ .

الضمائر منتشرة فى كل لغات العالم وهذا دليل آخر على أن هناك صفات مشتركة بين اللغات وهناك دليل سادس وهو أن جوانب كثيرة من الحضارة كالتربية والتعليم والدين والتقدم التقنى جعلت الناس يشتركون فى كثير من المفاهيم الحضارية ومما أدى إلى سهولة أنتشارها المواصلات السهلة بين الدول والاتفاقيات الدولية والمؤتمرات المختلفة من رياضية واقتصادية وسياسية وعلميه الخ . كان لكل هذا الأثر فى أن ينتقل الانسان من دائرته الطبيعية إلى دائرة ارحب وأوسع فيتعرف على شئون الآخرين فى شتى مجالات الحياة الاجتماعية فنجد اليوم فى عالمنا العربى جامعة الدول العربية وما ينبثق عنها من مؤسسات ونجد فى افريقيا منظمة الوحدة الأفريقية وفى اوروبا السوق الأوربية المشتركة وما ينبثق عن كل هذه من مؤسسات أخرى كل هذا كان له اثره فى الاضافات الجديدة لدى الكائن البشرى فى أى قارة كان .

ثم أيضا نجد أن العلاقات بين الدول وبعضها البعض له أثره من حيث تقليد الشعوب لبعضها البعض فى سلوك المأكل والمشرب والملبس وغيرها ، حتى أننا نجد انماطا دخليه من السلوك علينا أخذناها من غيرنا من الأمم والشعوب ذات العلاقة بنا أقول بعد إن العلاقة بين اللغات قائمة وان هناك سمات وخصائص مشتركة بين معظم لغات العالم فبالرغم من وجود الفوارق والبعد بين الأوطان وبالرغم من تباين الالسن فان هناك قاسما مشتركا بين اللغات وخاصة على مستوى الفكر ونجد أن العالم الأن أصبح تواقاً إلى التعارف والتآلف خارج حدود الوطن ونجد أن الترجمة قد أخذت ابعادا جديدة فى العالم وذلك من أجل التعرف على أفكار الآخرين وأقول أن تعدد اللغات فى العالم لا يؤدى إلى البعد والتنافر بل هو عبارة عن التنوع فى الوحدة وحدة الفكر وفى ذلك التنوع الخير كل الخير لاننا نعلم أن التنوع هو سر

الحياة وهو استمرارها ونجد أن اللغة هي الوسيلة الوحيدة المعبرة عن هذا الكون وهي لذلك دائما تسير مع الفكر وترتقي برقيه وتتكون بلونه لأنها وسيلة الفكر الوحيدة للتعبير والتبليغ وما أعظمها من وسيلة .

الكـلام واللغـة واللســان

كثيرا ما نستعمل عبارتى الكلام واللغة فى معنى متقارب ولكن سنجد أن هناك فرقا بين الكلام واللغة وسنوضح ذلك فى هذه الصفحات . نقول ما الكلام ؟ « الكلام هو ما يصدر عن الفرد من ألفاظ سواء أفادت أم لا » .

ما اللغة : « هى الألفاظ التى تصدر عن الفرد والجماعة مؤدية معنى من المعانى فهى سلوك لفظى لدى الأفراد والجماعات .

وسأعرض هنا نظرية دى سوسير إذ يصطنع ثالوثا خاصا به يتضمن تصورات ثلاث متكاملة .

١ – ان ما يسميه دى سوسير LeLangage « اللغة » هو اللغة فى أوسع معانيها أى اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة .

٢ – ان ما يدعوه La Langue (اللغة المعينه : أى العربية أو الانجليزية الخ . فهو يضم على وجه الخصوص نظام المفردات والنحو فى أى عصر من عصور تاريخ لغة معينه . و Langue أى هذه اللغة أو تلك عند دى سوسير جماعية أو اجتماعية[1] .

٣ – أما التصور الثالث الذى يعبر عنه دى سوسير بكلمة Laparole = الكلام . فيعنى به اظهار الفرد للغة La Langue وتحقيقه اياها عن طريق الأصوات الملفوظة أو عن طريق العلامات المكتوبة .

(١) عوامل التطور اللغوى د أحمد حماد ص ١١٥

وما يدعوه دى سوسير La Parole (الكلام) فردى وهو واقع تحت سيطرة الفرد .

أما فى استعمالنا عبارة اللغة العربية والتى تعنى اللسان العربى فاننا نجد فرقا واضحا بين الكلام واللغة واللسان ، وذلك ان الكلام يطابق المصطلح الفرنسى الذى ذكرته عند دى سوسير Parole ، واللغة تطابق La Langage ، أما اللسان فيطابق La Langue ، وسوف نوضح الفرق بين هذه المفاهيم الثلاثة .

يقول الدكتور حنفى بن عيسى فى كتابه محاضرات فى علم النفس اللغوى « ان الباحث إذا ما تصدى للدراسة لسان قوم فأما أن يكون موضوعه هو اللغة كظاهرة اجتماعية وكأداة يتم بواسطتها التفاهم بين ابناء الأمة الواحدة أو أن يتصرف إلى دراسة الكلام ، وهو نوع من السلوك الفردى ويتجلى عن طريق كل ما يصدر عن الفرد من أقوال ملفوظة أو مسطورة »(1) .

فالكلام واللغة إذن هما فى الواقع جانبان متناظران لظاهرة واحدة أما الأول فهو الجانب الفردى من السلوك اللفظى وأما الثانى فهو السلوك الاجتماعى .

أما دراسة الباحث للغة ، فهى دراسة ظاهرة اجتماعية يحاول من خلال دراسته أن يتوصل إلى السمات المشتركة بين الأفراد فى كلامهم كى يحكم بأن قوما من الأقوام لهم لغة مشتركة يتفاهمون بها .

وفى تعريف ابن منظور للغة أن اللغة حدها أنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم وهى فعلة من لغوت إذا تكلمت . أصلها لغوة

(1) محاضرات فى علم النفس اللغوى ص ٧٠ . د . حنفى بن عيسى .

« وهكذا نرى أن من خصائص اللغة التطور والتغير حسب الأقوام الذين ينطقون بها ، لأن اللغو « هو ما كان من الكلام غير معقود عليه » وهو أيضا « مالا يعتد به » لتغيره من حال إلى حال .

أما اللسان : فهو النموذج الإجتماعي الذى استقرت عليه اللغة أو هو السلوك السوى لاغلبية عظمى من أبناء الأمة الواحدة . وذلك لأن الفرد حينما يتكلم فانه ولا شك ينحرف قليلا عن لسانه القومى . ونجد أن الفرد يحاول دائما أن يكون لسانه قريبا من الفصحى لأنها النموذج المثالى الذى يسعى إليه الفرد . ونجد أن لسان أمة من الأمم يشتمل على عدة لغات ، واللغة فى حد ذاتها تتألف من كلام كل فرد ، فاللسان العربى مثلا يتضمن عدة لغات وأن كانت هذه لا تختلف إلا من حيث الجزئيات والتفاصيل .

فهناك لغة قريش ولغة تميم ولغة أهل الحجاز .. إلخ . ونرى اليوم اللسان العربى له مميزات بحسب الاقطار العربية إذ نستطيع أن نميز بين لغة أهل الشام عن لغة أهل مصر أو أهالى المغرب . وهذا من حيث المد أو الامالة أو تعطيش الجيم .. الخ . من الفروق اللهجية المختلفة وأحيانا تطلق كلمة اللغة ويراد بها اللسان ، كقولنا اللغة العربية وما ذلك إلا على سبيل التوسع فى المعنى ، وإلا فان المقصود باللسان مفهوم أعم كما رأينا ، نجد أن واضعى المعاجم عندهم مفهم خاص عن اللغة ، عندما يشيرون بصدد شرح إحدى الألفاظ إلى أنه توجد فيها لغات .

وبناء على هذا نقول أن الكلام واللغة كل منهما سابق للسان من حيث النشوء لأن اللسان لا يستقر إلا بعد مضى أجيال ، فاللسان يتأثر بالكلام واللغة ويؤثر فيهما ، فهو يتأثر بهما لأنه نتاج كل ما يصدر عن

الأفراد من أقوال لأنه يتلقى رصيده اللغوى من الأفراد والجماعات ويؤثر فيهما لأن المتكلم يحاول دائما أن يتقن أساليب التعبير ويقلد البلغاء إلى أن تصبح لغته ملكة راسخة وأداة مطواعاً لفكره .

(٢) وظيفة اللغة

لا شك أن وظيفة اللغة الأساسية هي التعبير عن الاحاسيس وتبليغ الأفكار من المتكلم إلى المخاطب ، فاللغة بهذا الاعتبار وسيلة للتفاهم بين البشر ، وأداة لا غنى عنها للتعامل بها فى حياتهم .

ولقد سبق أن قامت الدراسات اللغوية على أساس أنها فرع من الفلسفة أو فرع من علم النفس ، أو فرع من الانثربولوجيا الاجتماعية الخ . وخلاصة ما أدت إليه هذه الدراسات هو اعتبار اللغة وسيلة للتعبير عن الأفكار والعواطف والرغبات أو وسيلة لتوصيل الأفكار .. الخ . ويقول (هنرى سويت) « ان اللغة هى التعبير عن الأفكار بوساطة الأصوات الكلامية المؤتلفة فى كلمات »(١) .

ونجد أن سابير يذهب نفس المذهب إذ يقول : « اللغة وسيلة انسانية خالصة وغير غريزية اطلاقا لتوصيل الأفكار والانفعالات والرغبات عن طريق نظام من الرموز التى تصدر بطريقة ارادية »(٢) .

ولا يزال بعض المحدثين من علماء اللغة ينظرون إلى اللغة هذه النظرة ولكن « الأفكار » و « الانفعالات » و « العواطف » والرغبات .. الخ . مصطلحات منقولة من دراسات أخرى غير لغوية فى أصلها ولو جاز أن « الكلام » فى بعض استعمالاته تعبير عن « الفكر » فانه ليس كذلك فى جميع استعمالاته أو فى معظمها ، فليس ثمة توصيل للأفكار أو تعبير عن أفكار فى لغة التحيات ولغة التأدب

---

(١) Henry Sweet : Vew English Grammar. Langage in the expression cet ideos by means of speech sounds Combined into wonds.

(٢) انظر اللغة والمجتمع د . السعران ص ١٠ .

ولغة التدريب الرياضى والعسكرى مثلا .

ان أصحاب هذه النظرية فى اللغة على اختلافهم يرون أن : الوظيفة الأساسية للغة هى أنها وسيلة من « الاتصال » أو « التوصل » أو « النقل » أو « التعبير عن طريق الأصوات الكلامية »[1] . وأن ما توصله اللغة أو تنقله أو تعبر عنه هو الأفكار والمعانى والانفعالات والرغبات أو الفكر بوجه عام . وأقول على أن حصر جميع وظائف اللغة فى غرض واحد لا يخلو من مغالاة وسنجد أن التعبير يتخذ عدة صور ، ولا يمكن أن نطلق على بعضها تسمية اللغة على سبيل المجاز وسنجد أن التبليغ مفهوم أعم من اللغة إذ أنه يمكن أن يحدث بعدة طرق من جملتها اللغة وسنجد فى السلوك اللغوى للإنسان ما لا يمكن أن يندرج فى الوظيفة السالفة الذكر فهناك مثلا المونولوج أو الحديث الداخلى فليس القصد منه التبليغ بل هو تنفيس عن الكرب إلا إذا افترضنا على غرار ما فعل ساير أن : « المتكلم والسامع مندمجان فى شخص واحد ويمكن أن يقال عنه بأنه ينقل الأفكار إلى نفسه»[2] . ومما لا أثر فيه للتبليغ أيضا ما يسمى بالمناجاة من صلاة ودعاء واستغفار وذكر الله عز وجل ، وما إلى ذلك فلا يوجد هنا تبليغ وليس له إلا طرف واحد ولكن نستطيع القول بأن الحوار حاصل بين العبد وخالقه .

وبعد فاننى سأعرض وظائف اللغة على النحو التالى :

١ - **الوظيفة الاجتماعية** : أن اللغة تبلور الخبرات البشرية وتجارب الأمم فى كلام مفهوم يمكن أن يستفيد منه الغير وتدون التراث الثقافى .

---

(١) انظر اللغة والمجتمع - د . السعران - ص ١٢ .

وتحتفظ به جيلاً بعد جيل كما أنها تساعد الفرد على تعديل سلوكه كي يتلاءم مع المجتمع فهي تزوده بالعبارات المناسبة لكل مقام . وعندما يتعلم المرء تلك العبارات ويرددها في الظروف المناسبة فانه يحاول أن يخضع سلوكه كفرد لما يقتضيه المجتمع .

٢ – الوظيفة النفسية : فاللغة خير وسيلة للتحليل فبواسطة اللغة يستطيع الفرد أن يحلل أية فكرة إلى اجزائها فإذا سألك شخص عن وصف حادثة شهدتها فانك ستجيب عن الاسئلة الآتية : ماذا وقع ؟ ومن هو الشخص الذي وقع له الحادث ؟ ومتى ؟ وأين ؟ وكيف ؟ ولماذا ؟ وما هي الظروف المرافقة للحادث وملابساته ونتائجه ؟ وستجد في اللغة صورة صادقة للإجابة عن كل هذه الأسئلة ويرى العالم النفسي الشهير ثورندايك أن وظيفة اللغة النفسية ليست في التحليل والتركيب بقدر ما هي في احداث استجابات لدى الأفراد فاللغة إنما هي أداة تستعملها لاثارة أفكاره وعواطف لدى الآخرين . فهي إذن خاضعة لقانون المنبه والاستجابة علماً بأن المنبه في مجال اللغة هو الكلمات والاستجابة هي السلوك اللغوي الناتج عنها .

٣ – الوظيفة الفكرية : إن الإنسان يمتاز عن سائر الحيوانات بالفكر والقدرة على التصور والتخيل والتحليل والتركيب . وإذا نظرنا إلى بعض الطيور والقردة والكلاب فاننا ربما سنجد في بعضها وخاصة التي خضعت للتدريب سلوكاً ينم عن شيء من الذكاء والفكر ولكن ليس في الدرجة التي استطاع الإنسان المفكر أن يصل إليها وأن المقارنة بين هذه الحيوانات والإنسان لا تجوز لأن الفرق شاسع جداً . والشيء الذي يميز الإنسان عن سائر الحيوان هو أنه ناطق معبر عن كل ما يريد من أفكار لديه لذا فان هذا يؤكد ما ذكرناه سابقاً من أن اللغة والفكر لا يمكن الفصل بينهما . واللغة في الحقيقة لا غنى للإنسان عنها فهي

الوسيلة لإبراز الفكر من حيز الكتمان إلى حيز التصريح ، وهي أيضا عماد التفكير الصامت والتأمل ولولاها لما استطاع الإنسان أن يسبر غور الحقائق حينما يسلط عليها أضواء فكره .

إذن العلاقة بين الفكر واللغة وطيدة ، فاللغة تقدم للفكر تعاريف جاهزة وتصف له الأشياء بخصائصها حتى لا تتداخل مع غيرها وتساعد المفكر في عمله إذ تزوده بصيغ وتعابير معروفة وتضع تحت تصرفه أساليب مدروسة .

اللغة وسيلة للتعبير

لقد قلنا أن الوظيفة الأساسية للغة هي التعبير وهي الوسيلة الوحيدة والأساسية للتعبير عن عواطف الإنسان وأحاسيسه وأفكاره من الداخل إلى الخارج . ولكن كما ذكرنا أن هذا التعبير قد يتخذ صورا وأشكالا فقد يكون التعبير أحيانا بحركات اليد أو بهز الرأس أو بتغير ملامح الوجه أو بالنقر على الخشب أو بالصفير أو بغيرها من الوسائل الأخرى المساعدة أقول أن التعبير لا يختص به الإنسان فقط ولكن نجد أن بعض الحيوانات تستطيع كذلك أن تعبر عن حاجاتها بجعله من الأصوات أو الحركات أو الصرخات إذ أن الحيوانات لديها وسائلها الخاصة لتعبر بها عما تريد فهي تستعمل حركات وإشارات وأصوات خاصة بها فى حالات مختلفة سواء فى التبليغ عن الطعام أو إلى خطر داهم أو إلى رغبة .. الخ .

ونجد أن التعبير إما أن يكون فطريا وإما أن يكون وضعيا فأما التعبير الفطرى فهو التعبير عن العواطف والانفعالات والأحاسيس وهذا التعبير الطبيعى الذى يتم بواسطة الصراخ والضحك والبكاء واحمرار الوجه .. الخ . من المظاهر غير الارادية التى ندركها بالحواس .

ومن منا لا يستطيع أن يقرأ على وجه صديقه ما يختلج فى ذهنه من الخواطر ؟ فمن السهل أن نتبين على ملامحه الألم أو الحزن أو السرور أما التعبير الاصطلاحى فهو لغة التفكير والعمليات العقلية المعقدة وهو لغة الحضارة والتقدم وبها يتعامل الناس فى حياتهم ويتفاهمون لقضاء شؤونهم وهذا النوع من التعبير يكون اراديا ومقصودا .

والتعبير الوضعي نوعين :

١ – ما يدرك بالبصر ، مثل الإشارات البحرية والحركات اليدوية التى يستخدمها الصم والبكم وكذلك الحركات التى نستعملها كمساعد للكلام للتوضيح والشرح وكذلك العلامات اللغوية المكتوبة .

٢ – ما يدرك بالسمع وهى الأصوات المركبة والجمل ونجد أن معظم الحيوانات تشترك مع الإنسان فى الطريقة الأولى للتعبير وهى اللغة الفطرية فالحيوانات تحس كالإنسان بالجوع والعطش والخوف والغضب .. الخ . فهى تستعمل لغتها الفطرية للتعبير عن كل حالة من هذه الحالات .

وكما ذكرت من قبل فان هذه الأنواع من التعابير أبعد ما تكون عن خصائص اللغة حسبما تعارف عليها الإنسان .

فالحيوان من « البهائم العجماء » فلا يملك جهازا صوتيا ولا يملك فكرا وعقلا وهذا هو ما يميز الإنسان عنه . وعلى هذا فلا نستطيع أن نطلق على تلك الإشارات أو الأصوات أو الحركات التى يعبر بها الحيوان عن رغباته كلمة اللغة إلا على سبيل المجاز فقط لأن اللغة هى تلك الرموز والأصوات والجمل والتراكيب التى عرفها الإنسان وألفها واستطاع أن يعبر بها عن رغباته وأفكاره فهى بعيدة كل البعد عن تلك التى لدى الحيوانات .

اللغة وسيلة للتبليغ

إن من أهم وظائف اللغة نقل فكرة ما من شخص لآخر ، وقد توجد طرائق مختلفة لتوصيل الفكرة كبعض الحركات والإشارات والإيماءات وغيرها من الوسائل المعروفة ، إلا أن اللغة تبقى الوسيلة الوحيدة القادرة على ابلاغ الفكرة من المتحدث إلى السامع بسهولة ويسر وبسرعة فائقة لأن اللغة هى أقدر الوسائل على التبليغ والتوصيل .

ولابد لنقل أى خبر أو فكرة من أن يكون لهذا الخبر أو هذه الفكرة مصدر ونهاية مختلفان فى الزمان والمكان أى أن الخبر أو الفكرة ينتقلان من نقطة البداية إلى نقطة أخرى هى نقطة النهاية ولابد من أن يسلك هذا الخبر طريقا يدعى الممر أو القنال ، ولكى يمر الخبر عبر الوسط الناقل له فلابد من صياغته فى رموز متعارف عليها ويستعان لتحقيق ذلك بجهاز الإرسال لدى الإنسان وهو الجهاز الصوتى وبعد إرسال الخبر لابد أن يوجد هناك جهاز لاقط وهو إذن السامع تتلقى تلك الرموز وتترجمها وتعيدها إلى الصيغة التى انطلق بها الخبر من المصدر .

وهناك أمثلة أخرى على التبليغ الا وهو التبليغ البرقى فهناك المصدر تنطلق منه بلاغات ورسائل متتالية ، ويحولها جهاز الإرسال إلى نقاط أما جهاز الإلتقاط فهو يحول تلك الرموز إلى حروف .

وكذلك التأليف يعتبر طريقة من التبليغ ، ان المؤلف هو مصدر كل ما ورد فى كتابه من أخبار وأفكار ، والقراء هم بمثابة المنتهى . وعملية الكتابة والتسجيل هى بمثابة الإرسال ، وبقاء محتوى الكتاب مكتوبا

هو الممر الذى يضمن للكتاب الديمومة عبر الزمان والمكان . وأن عقول القراء وعيونهم هى أجهزة الإلتقاط . ونقول أن التبليغ اللغوى هو أكثر أنواع التبليغ انتشارا وتداولا بين الناس لأن الإنسان فى أغلب الأحيان هو مصدر الخبر ، فهو يستطيع بفضل تكوينه الفيزيولوجى وتجاربه الماضية ومدركاته الحسية والعقلية ، أن يحصل على أخبار يمكن نقلها إلى غيره . ويستعين الإنسان لنقل الخبر كما ذكرت من قبل بجهازه الصوتى الذى يحول الخبر إلى أمواج صوتية تخترق الهواء وأما الممر الذى ينتقل عبره هذا الخبر فهو الهواء الذى يشكل صلة الوصل بين جهاز المتكلم الصوتى ، وبين أذنى السامع والأذن عبارة عن جهاز من أجهزة الالتقاط كما أوضحت ، فهى تلتقط الأمواج الصوتية وتحولها إلى حركة تدب عبر الأعصاب ، وتنتقل إلى منتهاها أى إلى الجهاز العصبى المركزى .

وبعد فان عملية التبليغ تشتمل على مرحلتين هما :

١ - مرحلة الصياغة .
٢ - مرحلة الكشف عن الصياغة والباسها المعنى المطلوب .

وقد أشار ابن جنى فى كتابه الخصائص إلى ما سماه بالمعميات وهو ما عَمِيَ والغز فى الرسم والكتابة[١] . ومن أمثلة ذلك أنك إذا أردت أن تكتب « أحمد » فيمكن أن تعوض عن الألف بالكاف مثلا والحاء بالطاء والميم بالراء والدال بالباء فتكتب كطرب عوضا عن أحمد .

وأشار ابن جنى أيضا إلى ما سماه « بالتراجم » وسمى كذلك لأن الكلمة التى فيها تعميه وغموض تحتاج إلى الترجمة .

---

(١) الخصائص : ابن جنى جـ ١ ص ٤٥ .

وخلاصة القول أن جلّ اللغات هي في الواقع عبارة عن مجموعة من العلامات أو الرموز المتعارف عليها في المجتمع ، فالكتابة مثلا هي عملية وضع للصياغة ، والقراءة هي عملية الكشف عنها ، كما أن الكلام هو عملية صياغة للأفكار التي تدور في الذهن برموز عربية أو المانية أو روسية أو غيرها ، وفهم المخاطب لها هو عملية كشف لهذه الرموز واعطائها المعنى الإجتماعي المتعارف عليه .

دلالة الألفاظ على المعانى

ان علم الدلالة بالمعنى العلمي الدقيق أحدث فروع علم اللغة كلها فلم يحظ بشيء من الاهتمام إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن الحالى . وهو فى الوقت نفسه أصعب المستويات اللغوية وأشقها على نفوس الدارسين . ذلك لأنه يعرض لمشكلة المعنى(1) . والمعنى اللغوى كما هو معروف موضوع يتعلق بكل شيء فى حياة الإنسان ثقافة وخبراته وقيمه ومثله وعاداته وتقاليده ومهنته .. الخ . وليس من السهل على الدارس أن يحدد هذا كله ويتعرف عليه تعرفا دقيقا إلا بدراسة طويلة شاقة قد تستغرق حياته كلها .

لهذا نجد أن بعض اللغويين أراد إخراج مشكلة المعنى نهائيا من البحث اللغوى ويرى فريق آخر أن علم الدلالة نفسه ليس فى حقيقة الأمر من فروع علم اللغة وإنما هو حقل للدرس يرتبط بميادين أخرى كثيرة كالمنطق والفلسفة وعلم النفس والاجتماع .. الخ .

ولا بد أن نقف قليلا أمام هذه النظرية التى تريد فصل علم المعنى عن اللغة ونقول أن علم المعنى هو قمة الدراسات اللغوية وأن اللغة أيا كانت تخدم المعنى . فالمعنى هو نهاية المطاف لآية لغة .

وأن اللغة تعبر عن معنى فى نفس المتكلم والسامع ، إذن لابد أن يكون المعنى مرتبطا باللغة ارتباطا دقيقا ، وأقول أليس المنطق والفلسفة والاجتماع علوم كلها تكتب وتدرس بواسطة لغة وتعبر عن هذه العلوم بهذه اللغة ، وأقول أيضا أن اللغة ظاهرة اجتماعية حضارية فلا يمكن فصلها عن معناها ولا يمكن ايجاد حضارة بدون لغة وهذا ما يمتاز به

---

(1) دراسات فى علم اللغة د . كمال بشر ص ٢٢ ، ٢٣ القسم الأول .

الإنسان عن غيره إذ أن لغته استطاعت أن تنتج حضارة ولم نسمع عن حضارة مجموعات الحيوانات المختلفة أو غيرها من الكائنات الحية .

فالعلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة أساسية ضرورية كي تؤدى اللغة مفهومها وما ترمز إليه لأن اللغة لو انفصلت عن معناها لأصبحت قوالب مفرغة لا فائدة منها إذ أنه لابد لكل لفظة من معنى تدل عليه حتى تكتسب هذه اللفظة قيمة معنوية لأنها تؤدى عملا ما وتدل على معنى ما فى حياة الإنسان والمجتمع .

وظيفتا الكلمــة :

فى الواقع أن كل كلمة تؤدى وظيفتين :

ا – التعريف بماهية الشيء ، فالكلمة هى أولا وقبل كل شيء ، لفظة تعرفنا بماهية الشيء وبخصائصه ويتم ذلك بواسطة المعنى الأساسى الأصلى .

ب – التعبير ، إذ أن الكلمة تحمل معها حينما تطلق شحنة من المعانى الثانوية اللاحقة المرتبطة بالمعنى الأساسى بعلاقة ما ، والدليل على وجود هذه المعانى الثانوية أننا لا نكتفى بظاهر الكلمات لدى التعامل مع الناس ، فترانا أحيانا نتسائل : ماذا كان مقصد فلان من هذه الكلمة فإذا كان ينوى أن يقول ؟ وما هى المقاصد التى تختفى وراء ظاهرة كلامه ؟ فإذا قلت : « أرأيت ذلك الرجيل ؟ »(١) . فان كلمة الرجيل قد افادت التصغير ، من حيث الوضع ، ولكن المقصود هنا ليس هو التصغير بل التحقير ، وهو معنى ثانوى ملحق بالأول على أنك إذا قلت فى موقف آخر « قال يا بنى » فكلمة « بنى » تفيد هى

(١) محاضرات فى علم النفس اللغوى د . حنفى بن عيسى ص ٦٨ .

الأخرى التصغير ، ولكن التصغير فى هذه المرة للمحبة والتدليل وبعد فسواء كانت وظيفة الكلمة هى التعريف أو التعبير أو هما معا فان الشىء الذى يهمنا فى هذا هو أن الإنسان لا يتكلم عبثا إلا فى الحالات المرضيّة بطبيعة الحال – فهو دائما يصدر عن نية فى الإفادة والاستفادة وهذان العنصران هما فى الواقع قطبا التبليغ اللغوى أن هناك نية مقصودة من طرف المتكلم فى إفادة المخاطب بخبر لا يعرفه وقد يجد من هذا الخبر اذنا صاغية وحسن تقبل أو على العكس قد يعرف عنه ولا يشجعه على المعنى فيما أخذ فيه ، على أن التفاهم بينهما لا يحصل على أكمل صورة إلا إذا استجاب الطرف الثانى بالرد فيستفيد المتكلم الأول بدوره وإلى هذا المعنى تشير جميع التعابير التى وجدناها فى العربية وقد أتت على وزن مفاعلة ، مثل المكالمة والمحاورة والمحاولة والمناظرة والمخاصمة والمحادثة والمناقشة – والمراسلة والمؤاخذة ، والمبادلة .. الخ . وهذه كلها صور من صور التبليغ اللغوى .

أهمية البحث فى دلالة الألفاظ

« علم الدلالة ونشأته »

ان الحديث عن العوامل المؤثرة فى تطور الدلالة من مناحيها المختلفة كالتطور مع العصر أو أثر الحضارة والبيئة فى تطور المعنى لابد وأن يسبقه تمهيد عن علم الدلالة ونشأته والدراسات المختلفة التى تناولته ، والمحاولات الأولى التى درست هذا العلم الحديث ؛ ان علم الدلالة هو قمة الدراسات اللغوية ولكنه مع ذلك احدثها ظهورا وذلك يرجع إلى قلة اهتمام اللغويين المحدثين بمشكلة المعنى اهتماما علميا ، ففى كتاب علم اللغة للدكتور السعران يقول : إن أول دراسة علمية حديثة خاصة بالمعنى حتى تلك التى قام بها مشيل بريل فى كتابه Essadc semantigue [1]

هذا المصطلح الذى أطلقه بريل على دراسته هذه هو كلمة Semantigue من وضع بريل نفسه فقد كان على بريل أن يسمى هذه الدراسة باسم يميزها عن سائر الدراسات اللغوية ولكن معنى Semantigue عند بريل غير معناها الذى تعرف به الآن عادة ولو أن اللغويين الآن يعرفون هذا المصطلح تعريفات مختلفة .

لقد كانت الدراسة الدلالية عند بريل ومن جاء بعده بفترة غير قصيرة مقصورة على « الاشتقاق التاريخى » ، وأن بريل كان يرى فى الأصول التى تحكم تغير المعنى خصائص عقلية مجردة وذلك مثل (الحاجة إلى الوضوح) ولكن بريل ومن خلفه كانوا لا يعطون

(١) علم اللغة : مقدمة للقارئ العربى ص ٣٠٧ وما بعدها د . السعران .

الجوانب الإجتماعية وغير الإجتماعية للظروف الإنسانية التي يحدث فيها التغير أي اهتمام(٣) .

لقد كان لدراسة بريل في علم الدلالة اثرها في لفت انظار اللغويين إلى مشكلة المعنى أو إلى تغير المعنى بوجه خاص فازدادت رغبة اللغويين في معرفة الأسباب التي تؤدى إلى تغير في المعنى فأخذوا يبحثون في تاريخ الحياة الثقافية للشعوب بحثا عن الأسباب التي تؤدى إلى تغير معنى الكلمة .

لقد وجد الباحثون أن ما تتعلق به الجماعات وما يكون لديها من مثل أعلى وجدوا هذا كله يختلف باختلاف العصور ومن السهل أن نتبع هذه الاختلافات على مر العصور فمثلا نجد أن مصطلحات النبل والفروسية في العصور الوسطى كانت تتجسم في صورة رجل راكب جوادا هو (الفارس) فكان لهذه الكلمة أن أصبحت أصلا لكلمات كثيرة هي النبل والشهامة والفروسية والشجاعة والقوة .

ومن هنا نرى أن ادراك اللغويين لضرورة تضمين ما يرتبط بالكلمات من معنى وما تستدعيه الكلمات عند دراسة تاريخها وتغير معانيها أخذ يزداد ويزداد . ولو استعرضنا معا كلمة (الفارس) في عصرنا الحاضر لوجدناها تحمل معاني الشرف والنبل والشهامة والرجولة والشجاعة والقوة والبطولة .. الخ . من المعاني النبيلة التي ترد على الخاطر عند ذكر كلمة فارس .

وإذا انتقلنا إلى كتابات غير اللغويين في البحث عن علاقة المعنى نجد أن (أوجدن وريتشاردز) قد كتبا كتابا بعنوان « معنى المعنى

---

(٣) عوامل التطور اللغوي ص ٩٩ د . أحمد حماد .

Meaning of meaning[1] ولقد ظهر هذا الكتاب بعد كتاب بريل بحوالى ست وعشرين سنة وأحدث أضعاف ما أحدثه كتاب بريل من تأثير لا سيما فى الدارسين للمسائل اللغوية ومن اللغويين ومن يرى أن معنى المعنى ليس كما يوحى اسمه دراسة خالصة للمعنى من الناحية اللغوية ، بل أنه يقدم نظرية فى المعرفة « الابستمولوجيا » Epistemology وأيا ما كان الأمر فان مؤرخى الدراسات اللغوية يقررون إن هذا الاهتمام السائد بدراسة الدلالة منذ سنوات لا سيما فى الولايات المتحدة الأمريكية ، قد أثاره بوجه خاص كتاب (معنى المعنى) .

والفائدة الكبرى التى أداها هذا الكتاب أن وضع ما تتصف به مشكلة طبيعة المعنى من تعقيد وقد ألزم هذا الكتاب مؤلفين آخرين أن يدرسوا مشكلة المعنى من وجهات نظر مخالفة كما فعل الاستاذ (برجمان) مثلا . وتفسير أوجدن وريتشاردز للمعنى يقوم على أساس (رياضى) (آلى) المعنى عندهم يرتد إلى أربعة عناصر هى : القصد والقيمة ، والمدلول عليه ، والانفعال العاطفى . ومن المحاولات التى ظهرت فى دراسة الدلالة تلك التى قام بها الاستاذ (برجمان) وسماها (منطق الفيزياء الحديثة)[2] أو اخضاع الألفاظ للتجربة بين الاستاذ برجمان للقارىء المبتدىء تلك التغيرات الدلالية التى تطرأ على بعض الكلمات عندما يستعملها العالم المتخصص فى موضوع تخصصه فكلمتان مثل « الزمان » و « المكان » من الكلمات اليومية المألوفة ولكن لكل من هذين المصطلحين عند الفيلسوف أو عالم الفيزياء مثلا

(١) انظر أولمان : دور الكلمة فى اللغة ترجمة د. كمال بشر ص ٥٧ وما بعدها ، أنظر : علم اللغة مقدمة للقارىء العربى د. السعران ص ٣١٥ وما بعدها .

(٢) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى د. السعران ص ٣٢١ .

دلالة تختلف عن دلالته المألوفة فى الأحاديث اليومية . ان مشكلة المعنى دفعت الاستاذ بردجمان إلى أن يقترح وسيلة جديدة فى « التعريفات » سماها « طريقة العمليات » أو (الاجراءات) وهذه الطريقة طبقها على أمثلة كثيرة فى كتاب آخر له هو الفرد الذكى والمجتمع The intelligent individual مستخرجا بها بعض المفهومات الإجتماعية وقضية الاستاذ برجمان هى : أن التصور مرادف للعمليات « الاجراءات » التى تختبره بها وذلك كما تختبر الوزن فى المعمل .

وعندما طبق بردجمان هذه الطريقة على التصورات الإجتماعية اتضح أن نتائجه كانت مثبطه ، فهو يقول لنا ، إذا لم نستطع أن تختبر تصورات مثل (الديمقراطية) و (الواجب) و (الأخلاق) بواسطة (عمليات) فهى إذن تصورات لا معنى لها ويجب طرحها وهكذا لا يتبقى آخر الأمر إلا الدوافع المركزة حول (الانا) دوافع الأفراد الذين يكونون المجتمع .

ان بروجمان عندما يتكلم عن علم الدلالة يبالغ فى اظهار أهمية الأنا ويهون من شأن تعاونه مع الآخرين .

وأنقد هنا نظرية بروجمان هذه لأنه اعتمد فيها أولا على اخضاع الالفاظ للاختبارات أو العمليات كما سماها وبذلك يرفض كل الألفاظ المعنوية تقريبا لأنها حسب رأيه لا تخضع للتجربة(١) وأقول أن الإنسان كائن حى يتفاعل ويتعامل مع الآخرين وأن الفرد يعيش فى مجتمع ولابد أن يأخذ ويعطى هذا المجتمع ، لأن هذه هى سنة الحياة فلابد من أن يتعاون السامع والمتكلم فى فهم بعضهم الآخر ولابد أن يخدم كل منهما الآخر عن طريق التعامل والتعاون ولابد إذن أن يكون هناك

(١) عوامل التطور اللغوى . د . أحمد حماد ص ١١٤ .

معانى جديدة قد ظهرت عن طريق هذا التعاون وليس من الضرورى أن تخضع هذه المعانى للإجراءات أو العمليات كما سماها بردجمان .

ان الدلالة ومعنى الدلالة وتطور الدلالة خاضعة للمجتمع للفرد للإنسان هذا الإنسان هو الذى يعطيها دلالة جديدة وهو الذى يطورها وهو الذى يكون سببا فى وفاتها أو احياء دلالة جديدة لذلك فاننى هنا أنقد هذه النظرية خاصة أنها تخضع الألفاظ للاختيار أو للاجراءات كما يحلوله أن يسميها . وخاصة من حيث التطور الدلالى . وان كنت أؤيد إلى حد ما رأى ريتشاردز واوجدن فى كتابهما (معنى المعنى) خاصة وأنهما ارجعا تفسير المعنى إلى العناصر الأربعة السابقة الذكر فاننى أجد فيها نوعا من اشراك الإنسان ومن أثر المجتمع فى تطور الدلالة وفى معرفة المعنى .

وبعد أن استعرضت نظرية بريل واجدن وبرجمان فى تطور المعنى ودلالته نرى أنه لابد من مناقشة نظرية (دى سوسير) وخاصة ان كثيرين قد تأثروا بنظريته .

يبنى دى سوسير نظريته الإجتماعية فى اللغة على أساس نظرية دور كايم الإجتماعية ودور كايم يعتبر ما يسميه (نشاط الجماعة) أو (النشاط الجماعى) مستقلا عن أى فرد من الأفراد الذين ينتمون إلى المجتمع[1] .

ان للفرد عند دور كايم وجودا خاصا به ، ودور كايم يقرر أن الظواهر الإجتماعية ذات وجود خاص بها واللغة ظاهرة من جملة هذه الظواهر الإجتماعية ، ويرى دور كايم أن الخصائص السلوك أو

---

(١) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى د . السعران ص ٣٣٨ .

(سماته) وجودا مستقلا ، وأن الأنواع العامة للسلوك الإجتماعى لاتعدو أن تكون تعميمات وأن ما قرره دور كايم عن الظاهرة الإجتماعية يصدق على اللغة فى نظرية دى سوسير اللغوية ويصطنع دى سوسير (ثالوثا) خاصا به يتضمن تصورات ثلاث متكاملة .

١ – أن ما يسميه دى سوسير Le Languge – اللغة – هو اللغة فى أوسع معانيها أى اللغة باعتبارها ظاهرة انسانية عامة .

٢ – أما ما يدعوه La Langue – اللغة المعينة أى العربية أو الانجليزية .. الخ . فهو يضم على وجه الخصوص نظام المفردات والنحو فى أى عصر من عصور تاريخ لغة معينة و Langue أى هذه اللغة أو تلك عند دى سوسير جماعية أو اجتماعية .

٣ – أما التصور الثالث الذى يعبر عنه دى سوسير بكلمة Parole « الكلام » فيعنى به اظهار الفرد للغة La Langue وتحقيقه اياها عن طريق الأصوات الملفوظة أو عن طريق العلامات المكتوبة وما يدعوه دى سوسير La parole الكلام فردى وهو واقع تحت سيطرة الفرد .

٤ – يفرق دى سوسير بين ما يسميه « القيمة اللغوية للكلمة وبين ما يسميه (المقصد) من الكلمة ويكفى لدراسة القيمة اللغوية فى رأيه أن ندرس عنصرين هما (الفكرة) التى تدعو إلى صورة سمعية أو أصواتا معينة والصورة السمعية التى تدعو الفكرة[٢] .

وأن معنى كلمة من الكلمات عند دى سوسير هو ارتباط متبادل أو علاقة بين الكلمة أو الاسم هى الصورة السمعية وبين الفكرة .

---

(٢) علم اللغة مقدمة للقارىء العربى – ص ٣٣٠ .

ان الكلمة علاقة لغوية ونحن عندما نفرق تفريقا اساسيا بين فكرتين فنحن نستعمل لذلك علاقتين لغويتين مختلفتين فالتفكير دون كلمات (عائم) ويرى دى سوسير أن العلاقة اللغوية لا تخلق وحدة بين اسم ومسمى ولكن بين فكرة وصورة سمعية . والمقصود يقابل الرمز أو العلامة والعلامة من ناحية أخرى تقابل سائر العلامات الموجودة فى اللغة موضوع الدرس وقيمة كل رمز أو علامة تتوقف على وجود سائر الرموز .

وضرب دى سوسير لذلك مثلا بقطعة من ذات الخمسة فرنكات : هذه القطعة يتأتى استبدالها بكلمة معينة من شيء مختلف كالخبز مثلا ، ونستطيع كذلك أن نقارنها بقيمة مماثلة من نفس نظام العملة ، كقطعة ذات فرنك واحد مثلا ، أو قطعة من عملة أخرى كالدولار[١] .

وأن دى سوسير كان صاحب فكرة تمييز الدراسة الوصفية للغة من الدراسة التاريخية لها وقد طبق هذا التمييز عند نظره فى المعنى حرص على وجود التفريق بين دراسة المعنى دراسة (وصفية) أى فى مرحلة معينة أو حالة معينة تجرد من تاريخ لغة من اللغات وتدرس بغض النظر عما قبلها وعما بعدها من مراحل أو حالات وبين دراسة المعنى دراسة تطورية نرى هنا أن دى سوسير يريد أن يقطع الصلة بين الألفاظ والتى تستمر دون انقطاع بين الألفاظ على مر العصور . فلو سلمنا معه جدلا ودرسنا الألفاظ فى مرحلة معينة وبغض النظر عما قبلها وعما بعدها فاننا لا نستطيع أن نعرف تطور هذه اللفظة وكذلك تطور دلالتها إلا إذا رجعنا إلى العصر السابق الذى كانت مستعلمه فيه وكذلك إلى العصر الذى تعيش فيه والعصر اللاحق الذى انتقلت إليه .

---

(١) المرجع السابق .

أقول أن دراسة دلالة الألفاظ دراسة متصلة وحلقة واسعة تنتقل فيها الألفاظ من عصر إلى عصر ومن حضارة إلى حضارة وهي في كل مرحلة تكتسب دلالة جديدة ومعنى جديدا . وهذا يعنى أنه لا انقطاع ولا انفصال بين الألفاظ فى عصر عن آخر وانما الدلالات الجديدة التى اكتسبتها هذه الألفاظ هى فقط التى نستعملها ونتعامل بها ، ولذلك يخيل الينا أنها بعيدة أو منفصلة عن العصور السابقة أو عن تاريخها اللغوى السابق وكثيرا ما يلجأ الإنسان إلى تغير المعنى فى حالة الضرورة ليسد النقص فى ثروته اللغوية وليساير التطور الحضارى الذى يسير بسرعة دون أن ينظر إلى ما حوله .

العوامل المؤثرة فى تغير الدلالة

هناك عوامل خارجة لها أثرها فى تغير المعنى حيث أن الألفاظ متطورة متغيرة فلابد أن يكون هناك ما يؤثر على تغير الدلالة تأثيرا مباشرا مما يؤدى بالتالى إلى تغير فى هذه الدلالة فتؤدى معنى جديدا وتدل دلالة جديدة على معنى قديم أو كلمة جديدة إلى مدلول قديم .

ومن هذه العوامل ما هو معروف لنا من قبل وهو : الحاجة إلى كلمة جديدة أو كلمة أقدر من غيرها على التعبير المقصود .

فاذا احتجنا مثلا إلى كلمة مناسبة لاطلاقها على الاسطوانة المعروفة فى عالم الغناء والموسيقى فأقرب طريق إلى ذلك هو أن نوسع فى معنى كلمة تسجيل بحيث تشمل الاسطوانة بالاضافة إلى عملية التسجيل نفسها[١] .

على أن هناك حالات أخرى لا حصر لها يكون تغيير المعنى فيها غير مرتبط بأية حاجة عملية حيث لا يعمل هذا التغيير على سد النقص الموجود فى الثروة اللفظية وإنما يضيف أمثلة جديدة إلى المترادفات الموجودة بالفعل .

فالفعل « يموت » وما يشتق منه يصبح جائز الاستعمال فى الكلام الدارج نحو « يموت فيه » (ويحبها موت) فاللغة لديها ثروة غنية من الكلمات التى نستطيع أن نختار منها ما نشاء .

ان تغير المعنى ليس إلا جانبا من جوانب التطور اللغوى ولا يمكن فهمه فهما تاما إلا إذا نظرنا إليه من هذه الزاوية .

---

(١) اولمان : دور الكلمة فى اللغة ، ترجمة ، د . كمال بشر ص ١٥٥ .

وكما نعرف أن اللغة ليست ساكنة بحال من الأحوال . بالرغم من أن تقدمها يبدو بطيئا فى بعض الأحايين ، فالأصوات والتراكيب والعناصر النحوية وصيغ الكلمات ومعانيها معرضة كلها للتغير والتطور .

ولكن سرعة الحركة والتغير فقط هى التى تختلف من فترة زمنية إلى أخرى ومن قطاع إلى آخر من قطاعات اللغة .

ان كل التغيرات التى تصيب اللغة مهما اختلفت فى طبيعتها وسرعتها ومجالها تسير وفقا لقاعدة أساسية واحدة هى أنها دائما وأبدا تقع على مرحلتين :

١ – **مرحلة التغير نفسه أو الابتداع والتجديد** . ويظهر هذا فى الكلام الفعلى وهو عمل فردى كالكلام نفسه ، ولكن هذا لا يعنى أنه مقصور على فرد واحد ، فقد يتصادف أن يتفق أفراد لا حصر لهم على الابتداع فى وقت واحد . بل قد يحس عدد آخر من الجماعة اللغوية المعينة بأن هذا الابتداع كان حاضرا بأذهانهم وكان باستطاعتهم أن يبدأوا به وربما فعلوا .

٢ – **مرحلة انتشار التغير** : إذا ما سمع الإنسان الشيء المبتدع فى عبارة أو فى عبارات علق بالذهن وترتب على ذلك استعمال الآخرين له ونفذ بالتدريج إلى نظام وتأتى بعد ذلك مرحلة تسجيل الكلمات ومعانيها فى معاجم اللغة .

ونرى أن المرحلة الأولى فردية والثانية اجتماعية معتمدة فى أساسها على قوة التقليد ، هذا التقليد ربما يكون مقصورا على المتكلمين البالغين ولكن يجب ألا ننسى الدور الذى تقوم به الأجيال القادمة فى عملية

التجديد اللغوي فهذه الأجيال حين اكتسابها للغاتها القومية تتعرض لاحتمالات سوء الفهم وتغيير القواعد والنظم الثابتة أو الانحراف عنها .

أن اللغة تنتقل من جيل إلى جيل على فترات تتخللها تغيرات وانحرافات دائمة ، وهذه الحقيقة ذاتها تؤدى إلى المرونة فى الاستعمال اللغوى وإلى عدم ثبات الظواهر اللغوية أكثر من أى عامل آخر .

وإليك العوامل المباشرة المؤثرة فى تغير المعنى :

١ - الاستعمال اللغوى : أن الألفاظ كما هو معروف لم تخلق لتحبس فى خزائن من الزجاج فيراها الناس من وراء تلك الخزائن ثم يكتفون بتلك الرؤية العابرة ولو أنها كانت كذلك لبقيت على حالها جيلا بعد جيل وعصرا بعد عصر ولكن الألفاظ وجدت وتعارف الناس عليها لاستعمالها فى حياتهم اليومية ، كما يتعاملون بالسلعة والعملة ، غير أن التبادل يكون عن طريق الأذهان ، تلك التى تختلف من جيل إلى جيل وبين أفراد الجيل الواحد والبيئة الواحدة بل والأسرة الواحدة فى التجربة والذكاء وتتشكل وتتكيف الدلالة تبعا لها[1] .
ويمكن تلخيص عناصر هذا العامل فيما يلى :

أ - **سوء الفهم** : وتلك تجربة قد يمر بها كل منا حين يسمع اللفظ للمرة الأولى فيسوء فهمه ويوحى إلى ذهنه دلالة غريبة لا تكاد تمت إلى ما فى ذهن المتكلم بأية صلة . ومثال ذلك أن تسمع شخصا ما يقول القدر يمكن أن يساء فهمها ويأخذها السامع على انها القدر أو القَدْر وكذلك كلمة الثورة قد يساء فهمها ويأخذها السامع على أنها الثروة ثم لا تتاح للسامع فرصة أخرى لتصحيح خطئه ويبقى اللفظ فى ذهنه مرتبطا بتلك الدلالة الجديدة .

---

(١) عوامل التطور اللغوى . د . أحمد حماد ص ١١٩ ، ص ١٢٠ .

ب – الابتذال أو « الانحطاط » : هناك كثير من الألفاظ فى كل اللغات يصيبها الابتذال وذلك لأسباب منها سياسية أو اجتماعية أو عاطفية . فحين نتذكر أن بعض الظروف السياسية قد تتطلب الحط من القاب ورتب اجتماعية ندرك السبب فى انزواء بعض الألفاظ التى تعبر عنها من اللغة ولعل أقرب مثال لهذا هو الغاء الألقاب والرتب فى مصر فانزوت كلمات مثل باشا ، بك ، افندى ، وغيرها من القاب تركية مرت بها تطورات فى دلالتها وانحط قدرها على توالى الأيام[1] .

ولعل أوضح الأسباب فى ابتذال بعض الألفاظ تلك التى تتصل بالناحية النفسية العاطفية وذلك أن يكون اللفظ قبيح الدلالة أو يتصل بالقذارة والدنس أو يرتبط بالغريزة الجنسية . نلحظ هنا أن جل اللغات تفقد بعضا من الفاظها التى تعبر عن هذه النواحى فتندثر تلك الألفاظ وتنزى ويحل محلها لفظ آخر أقل وضوحا فى دلالة وأكثر غموضا أو تعمية مثل قضاء الحاجة أنا ذاهب للحمام[2] .

جـ – احياء ألفاظ قديمة ذات دلالات مندثرة واطلاقها على مستحدثاته ملتمساً فى هذا ادنى ملابسه ، وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ذلك الفوج الزاخر من الألفاظ القديمة بصورة جديدة من الدلالة كالمدفع والقنبلة ، والدبابة واللغم ، والطيارة ، والطرّاد ، والسيارة ، والبريد والقاطرة والقطار ، والثلاجة ، والمذياع ، والذبذبات ، والتسجيل ، والجرائد ، والهاتف والتلغراف وغير ذلك من آلاف الألفاظ التى أحياها الناس واستعملوها وخلعوا عليها دلالات جديدة تطلبتها حياتهم اليومية الجديدة[3] .

---

(١) دلالة الألفاظ د . ابراهيم أنيس ص ١٣ وما بعدها .

(٢) انظر علم اللغة – مقدمة للقارىء العربى . د . السعران ص ٣٠٥ .

(٣) اللسان والانسان – د . حسن ظاظا ص ١٠٤ .

د – **الاقتراض** : كثيرا ما تدعوا الحاجة إلى الفاظ اللغات الأجنبية فيقترض منها ما تمس الحاجة إليه حينا ومالا حاجة إليه حينا آخر ، فاللغات تقترض بعضها من بعض ، ويقتصر الاقتراض عادة على الألفاظ والكلمات ولا تكاد تتعداها إلى العناصر اللغوية الأخرى كالتصريف والاشتقاق والتركيب أما الاقتراض الذى تدعو الحاجة إليه فقد عرفه القدماء كما عرفه المحدثون فقد اقترض العرب من الفرس واليونان الفاظا للتعبير عن أشياء ليست فى بلاد العرب ، وعمد القدماء إلى تلك الألفاظ فحوروا من بنيتها وجعلوها نسج الكلمات العربية وسموها بالعربية وتركوا البعض الآخر على صورته وسموه بالدخيل . ومن أمثلة ذلك :

الصراط : وأصله الكلمة اللاتينية ستراتا .

الخندق : من الفارسية خنده .

البرتقال : من بحارة البرتغال .. الخ . من مئات الألفاظ[1] .

٢ – **العوامل التاريخية** : ان انتقال الكلمات من عصر إلى آخر لابد وأن يصاحبه تغير فى مدلول هذه الكلمات نظرا لما يحدث من تغير وتطور فى الحياة الإجتماعية والسياسية والإقتصادية وغيرها مما يلمس حياة الإنسان من قريب أو بعيد وكما أوضحت أن الكلمات عرضة للتطور والتغيير ويكون هذا واضحا جليا عند انتقال الألفاظ من عصر تاريخى إلى عصر آخر ومن فترة تاريخية معينة إلى فترة تاريخية جديدة حدث ما حدث فيها من تغير فى حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم ومثلهم ومخترعاتهم وماجد عليهم من صناعات جديدة وعلوم وفنون حديثة كل هذا لابد وأن تجاريه تطور فى الألفاظ وتغير فى الدلالة .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٠٧ .

فكلمة Ship « سفينة » مثلا قد تغيرت صفتها تغيرا لا يكاد يذكر منذ العهد الانجلو سكونى ومع ذلك فان السفن الحالية تختلف عن السفينة التى كان يبحر عليها قراصنة الشمال من عدة وجوه ، أى من حيث الحجم والتركيب والشكل والخواص الفنية[٢] .

ومعنى هذا أن المدلول قد لحقه التغيير ولكن اللفظ الدال عليه قد بقى على حاله ومعناه كذلك أن التماثل الأساسى فى الوظيفتين القديمة والجديدة للمدلول كان سببا فى اعاقة اللغة عن ملاحقة التقدم الحضارى وهذه الظاهرة نفسها تطبق على المنظمات والمؤسسات ونحوهما .

فالبرلمان الانجليزى اليوم يختلف إلى حد ما فى لوائحه وقوانينه عن برلمانات القرن السابع عشر ومع ذلك فقد وجد أن من الأصلح الاحتفاظ باللفظ الدال عليه . ولو فرض حدوث تعديل دستورى آخر ، وكثيرا ما يناقش هذا التعديل فى الوقت الحاضر ، يرمى إلى تغير إلى الطريقة التى يتكون بها مجلس اللوردات مثلا فان هذا التعديل سوف لا يتضمن التخلص من الاسم ذى الشهرة التاريخية ، وتغييره إلى « جمعية » أو « كونجرس » مثلا . نعم أن المدلول حينئذ سوف يلحقه تغيير جوهرى ، ولكنه مع ذلك سوف يظل مرتبطا بالمدلول القديم ومتصلا به[١] .

وفى العصر الإسلامى حدث تغير كبير فى مدلول كثير من الألفاظ والمصطلحات الدينية والشرعية والفقهية واللغوية وكانت ألفاظها

(٢) اللغة والمجتمع - د . السعران ص ١٤ .
(١) اللغة والمجتمع - د . السعران ص ١١٤ .

موجودة قبل الإسلام ، ولكنها كانت تدل على معان أخرى فتحولت الدلالة على ما يقاربها من المعانى الجديدة . فلفظ المؤمن كان معروفا فى الجاهلية ولكن كان يدل عندهم على الأمان ، أو الايمان وهو التصديق فأصبح فى الإسلام يدل على المؤمن وهو غير الكافر ، وقس على ذلك جميع المصطلحات الفقهية التى ظهرت فى صدر الإسلام[٢] .

ثم نجد أن هناك ألفاظا ادارية استحدثت لما امتدت الفتوحات واتسعت رقعة الدولة الإسلامية لقد مست الحاجة إلى مصطلحات ادارية وسياسية فانتشرت الفاظ جديدة مثل الدبابة ، والعرادة والكبش والمنجنيق ، والمتطوعة .. الخ .

وحدث ما حدث من تطور فى المصطلحات المالية مثل الجباية ، والمكس ، السكة ، الراتب ، الضمان ، المكوس وغير ذلك كثير وبهذا ظهرت الفاظ جديدة أصبحت تدل على مستحدثات جديدة لم تكن معروفة فى العصر الجاهلى ولهذا نجد أن الألفاظ عرضة للتطور والتغير فى كل عصر ولذا نجد أن الألفاظ ربما تدل دلالة جديدة على معنى قديم أو تلبس معنى قديماً لفظاً جديدًا .

(٢) انظر . اللغة كائن حى . جورجى زيدان ص ٦٥ وما بعدها .

مما لا شك فيه أن التكلم أمر مكتسب وليس للوراثة أى أثر مباشر أو غير مباشر على تعلم الأطفال لغة الآباء ، ولو فطر الإنسان على التكلم لما تعددت اللغات ولما وجدت اليوم أكثر من الف وخمسمائة لغة ، ولكن لابد أن يجيب علم اللغة على اسئلة مازالت تحتاج إلى الإجابة عليها مثل كيف يتعلم الطفل اللغة ؟ وهل يتعلمها دفعة واحدة أم على دفعات ؟ وهل هناك تفاوت لدى الأطفال فى تعلم اللغة ؟ وهل يستطيع الطفل أن يدرك دلالة الألفاظ التى يتعلمها ويكتسبها سواء من أهله أى من بيئته الضيقة أو من البيئة الأوسع والأشمل بيئة المدرسة والحارة .. الخ . ؟

وما أثر ثقافة الوالدين على سرعة تعلم الطفل اللغة ؟

وهناك عشرات الأسئلة تنتظر الإجابة عليها . وفى الحقيقة نشير إلى أن اكتساب الطفل للغة يكون مرتبطا بالأم فى الأيام والشهور الأولى من حياة الطفل فالأم هى التى تناغى طفلها وتدربه على الأصوات اللغوية وتصوب له حتى يستوى لسانه وينطق اللفظ نطقا صحيحا كما تعارف عليه أفراد البيئة .

ولقد ورد فى كتاب يسبرسن(١) أن الحروف الأولى التى ينطقها الطفل هى الحروف الشفوية مثل الباء والميم . وذلك لأن الطفل يقوم فى بداية الأمر بتمرين عضلاته الشفوية قبل غيرها ونحن نعلم أن هذه العضلات الشفوية هى وسيلة إلى الحياة حيث بواسطة شفتيه يرضع ثدى أمه ويمص حليبها ، وحتى إذا لم يرضع من ثدى الأم فان حليب

(١) Ott. Jespersen : Lang vage its Nature, development and Origin. London, 1959, P. 105.

الزجاجة أو ما يسمى « بالرضاعة » يمتصه الطفل عن طريق استعمال شفتيه ، ولذا فان أسهل الحروف نطقا عنده تكون الحروف الشفوية لأنه قد تمرن على استعمال شفتيه فى الرضاعة ونجد أن أول الألفاظ التى ينطقها الطفل (بابا - ماما) فى وقت مبكر هذا بالإضافة إلى تمرين الوالدين للطفل على نطق هذه الألفاظ فيسعد الوالدان عندما يسمعا طفلهما ينطق بابا ، ماما نظرا للصلة القريبة التى تربطهما به .

وفى الحقيقة أن هناك خلافا بين علماء الوراثة والبيئة مازال قائما حول دور البيئة أو الوراثة فى تعلم الطفل ، قد نجد بعض علماء الوراثة يرجعون عملية التعلم إلى طائفة من الغرائز الموروثة أو بجملة من المنعكسات الشرطية المكتسبة ، إلا أن الجدال بين أصحاب الوراثة ودعاة البيئة لن ينتهى إلى نتيجة حاسمة ، مادمنا نجهل الكثير من الأمور عن مراحل نمو الجنين ووظائف الأعضاء وارتباط بعضها ببعض .

والشيء المؤكد أن نمو اللغة عند الطفل مشروط بما يلى :

١ - اكتمال الأجهزة العضوية ، ونضج بعض الأنسجة العصبية والعضلية .

٢ - تدريب أعضاء النطق عند اكتمال نموها عن طريق التعلم[1] .

٣ - أما الأستاذ فيرث فقد رأى أن النمو اللغوى للطفل يمر بالمراحل الآتية[2] :

١ - مرحلة المهد وهى منذ ولادة الطفل إلى ما قبل استطاعته الجلوس .

---

(١) محاضرات فى علم النفس اللغوى . د . حنفى بن عيسى ص ١٤٠ .

٢ - مرحلة الجلوس وفى هذه المرحلة يكون قد بدأ الكلام .

٣ - مرحلة الحبو وفى هذه المرحلة يتسع عالم الطفل شيئا ما لأن الحبو ينقله إلى أبعد من مجلسه .

٤ - مرحلة السير بمساعدة وفى هذه المرحلة ينتقل الطفل إلى عالم أرحب .

٥ - مرحلة السير لوحده فى حدود المنزل .

٦ - مرحلة السير خارج المنزل .

٧ - مرحلة الذهاب إلى المدرسة . وهذه المرحلة من أهم المراحل بالنسبة للغة .

أما العالم الدنمركى (يسبرس)[٣] فقد رأى التقسيم الثلاثى لدراسة نمو اللغة عند الطفل .

١ - مرحلة الصياح .

٢ - مرحلة البأبأة .

٣ - مرحلة الكلام أو التكلم[٤] .

وفى الحقيقة نرى أن تقسيم يسبرس اصلح للدراسة وللوصول إلى نتائج حول تعلم الطفل اللغة من دراسة تقسيمات فيرث ، وسوف نبدأ بدراسة المرحلة الأولى وهى فترة الصياح عند الطفل وتمتد هذه المرحلة من مولد الطفل حتى الأسبوع الثالث وقد تستمر إلى الأسبوع السابع أو الثامن .

---

(٢) اللغة والمجتمع . د . محمود السوان ص ٤٠ .

(٣) يسبرس - ص ١٠٣ المرجع السابق .

(٤) انظر - اللغة والمجتمع - د . السعران ص ٤١ .

ان الصرخة الأولى التى يطلقها الطفل ساعة ولادته هى أول بادرة تدل على قدرته على التصويت وفى الحقيقة أن هذه الصرخة ليست كلاما ولكن علماء النفس والفلاسفة والآباء قد حملوا هذه الصرخة أكثر مما تحتمل إذ راح كل واح منهم يعزوها إلى معنى من المعانى وهذه المعانى كلها من قبيل الافتراضات والتخمينات ولكن هذه الصرخة اثبتت أن هذا الوليد قد برز إلى حيز الوجود وقد زوده الله بجهاز الكلام وفى الحقيقة أن جهاز التنفس هو جهاز ضرورى للتكلم فيما بعد إذ أن الكلام فى بدايته هو عملية شهيق وزفير وأن الرئتين هما الجهاز الأساسى فى عملية الكلام بالاضافة إلى الأجهزة الأخرى مثل الحنجرة والمزمار والوتران الصوتيان واللسان والفم والاسنان فهذه كلها تنمو مع نمو الطفل ولكن الجهاز الأول الذى يبدأ به حياته هو جهاز التنفس والذى بواسطته تستمر الحياة ومعه يكتمل تعلم الطفل اللغة .

ومن المؤكد أن الصرخات التى يصدرها الأطفال كلها واحدة ولا تستطيع أن تميز صرخة عن صرخة ولا نعرف أن هذه الصرخة تدل على الجوع أو العطش أو الألم إلا لدى الأم التى تعودت على صراخات طفلها وهى الوحيدة التى تعطى لكل صرخة معناها الذى اكتسبته من الممارسة اثناء معاشرتها لطفلها . اذن هذه الصرخات هى أفعال منعكسة غير إرادية لأن الطفل لا يريد التعبير عن شيء معين على وجه التحديد خاصة فى الأشهر الأولى من حياته . ولكن الأم فقط كما ذكرت هى التى تكسب هذه الصرخات معانى محددة لديها .

٢ - فترة المناغاة أو البأبأة .

فى هذه المرحلة ينتقل الطفل من الصراخ الذى لا معنى له إلا لدى

أمه وابيه إلى مرحلة جديدة تسمى مرحلة المناغاة ، ففى هذه المرحلة يصبح تعلم الطفل اللغة امر إراديا حيث يبدأ الأهل بتعليم الطفل بعض المقاطع الصوتية وخاصة الأصوات الشفوية وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل يردد هذه الحروف دون تمييز ودون مراعاة إلا رغبة فى التكرار واللهو . وفى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى تمرين جهازه الصوتى على النطق ويعوده على التلفظ إلى أن يتمكن ذلك الجهاز من اداء وظيفته على الوجه الصحيح .

ونعلم أن الطفل لا يعيش بمعزل عن الناس ولا يظل محصورا فى الاستماع إلى صوته فقط ولكننا نجد الطفل بعد مرور شهرين أو أكثر على ولادته يسمع بعض الأصوات من حوله وخاصته الاصوات التى تصدرها الأم أو المربية وهنا يبدأ الطفل يدرك الشبه بين صوته الذى يصدره والصوت الذى يسمعه من أمه ومن حوله ، ويكون قد وصل فى هذه المرحلة إلى نهاية السنة الأولى من عمره[1] .

وكما ذكرت فان الحروف الأولى التى يبدأ الطفل النطق بها هى الحروف الشفوية أو التى تصدر عن الشفة ونستطيع أن نقول أن يبدأ الصوائت أى الحروف المتحركة ، أما بالنسبة للحروف الصامتة وكذلك الحروف التى تخرج من التجويف الحلقى للجهاز الصوتى فانها قد تتأخر إلى مرحلة تالية من عمر الطفل .

ويرى بعض الباحثين أن نسبة ظهور الحروف الصائتة إلى الحروف الصامتة تصلح كدليل على نمو التعبير اللغوى لدى الأطفال الرضع ممن لا يتجاوز عمرهم شهرا ، وهى خمسة إلى واحد[1] .

---

(١) انظر – اللغة والمجتمع – د . السعران ص ٤٤ .

(١) محاضرات فى علم النفس اللغوى – د . حنفى بن عيسى ص ١٤٦ .

وقد اهتم بعض علماء اللغة مثل (جاكوبسن) وبعض النفس مثل (ايروين) بموضوع التطور الصوتي لدى الطفل في الأشه الثلاثين الأولى من حياته ، وقد احصى (ايروين) عدة احرف الصائتة فوجد أنها تبلغ اثنى عشر صوتا وعلى سبيل المقارنة ، نشير أن لغة الراشدين لا تزيد فيها الحروف الصائتة على ثلاث أحرف أو ستة بتعبير أصح كما ذكر ابن جنى حيث يقول : « أما ما فى أيد الناس فى ظاهر الأمر فثلاث ، وهي الضمة والكسرة والفتحة ومحصولها على الحقيقة ست ، وذلك أن بين كل حركتين حركة »[٢]

ونعتبر مرحلة المناغاة هي في حد ذاتها خطوة نحو تعلم الطفل الل إذ فى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى تمرين جهازه الصوتى والسمعى ع سماع الأصوات وعلى النطق بها وتعتبر هذه المرحلة كما ذكرت الخطو الأولى نحو تعلم لغة الأمهات والآباء ويبدأ الطفل يعود جهاز النط على أن يكون طيعا سلسا من أجل استعماله فى ألفاظ جديدة سيقب الطفل على تعلمها .

٣ – مرحلة الكلام :

وتنقسم هذه إلى مرحلتين ، مرحلة التقليد والمحاكاة ، والمرح الثانية تعلم الطفل الألفاظ والمفردات والجمل والتراكيب .

أما مرحلة التقليد ، ففى هذه الفترة يقلد الطفل من حوله تقليد غير محكم ونجده يحاول تقليد أمه وأبيه ومن حوله ولكنه لا يستطي ذلك بسهولة ولا يلتزم بأصل اللفظة التى يريد تقليدها ، وفى هذ المرحلة نجد أن كلام الطفل لا يكون مفهوما تماما إلا لدى أفراد اسرته

(٢) الخصائص – ابن جنى جـ ٣ ص ١٢٠ – ١٢١ .

المقربين فيعبر الطفل بحرف (م) بدلا من (ماء) أو (ميه) و (آيه) بدلا من (كوب أو كباية) و (احد) بدلا من (أحمد) وهكذا إذن كما قلت فى هذه الفترة تبدأ الأم بتصويب الألفاظ لطفلها وتعويده النطق السليم واخراج الحروف من مخارجها وخاصة الحروف السهلة المخرج مثل الحروف الشفوية واللسانية .

وفى هذه المرحلة يتضح دور الأسرة ودور الأم بالذات على توجيه الطفل وتدريبه وتعليمه وهذا يعود أيضا على ثقافة أفراد الأسرة مثل الأم والأب والأخوة ومن يعيش مع الطفل .

مرحلة تعلم الألفاظ والمفردات والجمل :

بعد المرحلة السابقة وهى تعتبر فترة استعداد وتهيؤ لدى الطفل ينتقل الطفل إلى المرحلة اللغوية التامة والتى يبدأ الطفل بها تعلم الألفاظ والمفردات ويحاول أن يركب جملة ولو كانت بسيطة مكونة من لفظتين ، وفى الواقع نجد الطفل ينطق بعض المفردات التى تتكون من مقطع صوتى واحد مضاعف مثل (ماما ، بابا ، تاتا) وهكذا ، ولقد لاحظ العلماء أن سرعة نمو اللغة عند الطفل تزداد ما بين الثانية والثامنة من العمر ، ثم تعود كما كانت بطيئة إلى أن يبلغ الطفل الرشد وفى هذه الفترة من عمر الطفل أى من الثانية إلى الثامنة يمر الطفل بمراحل هى أنه يخرج إلى الشارع ويلتقط من اقرانه الألفاظ والعبارات إلى أن يذهب إلى المدرسة أو إلى الروضة إذا كان فى البيئة التى يعيش فيها روضة للأطفال دون سن السادسة وعندما يبلغ السادسة من عمره ينخرط فى طور الدراسة وينتقل إلى مرحلة جديدة فى حياته وهى مرحلة المدرسة ففى هذه المرحلة يبدأ الطفل فى اثراء حصيلته اللغوية وهنا يبدأ دور الأسرة فى المتابعة والتحصيل وهنا يظهر أثر الثقافة الفردية فإذا كانت

الأم مثقفة متعلمة فهي تستطيع متابعة طفلها بل واضافة معلومات جديدة على معلوماته التي يحصل عليها من المدرسة وإذا كان الطفل يعيش في جو ثقافي علمي فانه يلتقط من والديه واخوانه الذين يكبرونه سنا الفاظا وعبارات وصيغ وجمل لا يستطيع أن يعيها طفل آخر يعيش في بيئة معدومة الثقافة والعلم وهنا يظهر التفاوت لدى الأطفال من حيث تعلم المفردات والألفاظ حيث من الطبيعي أن تكون محصلة الطفل الذى يعيش في بيئة ثقافية أكثر من محصلة الطفل الذى يعيش في بيئة فقيرة معدمه ثقافيا وان كانت مترفة تعيش في رخاء من العيش ، وأول ما يتعلم الطفل من المفردات الأسماء وخاصة أسماء الأشخاص الذين يحيطون به ، ثم يلي ذلك الضمائر والأفعال ، حتى إذا بلغ الطفل ثلاثين شهرا تناقصت الأسماء وتزايدت الأفعال والضمائر وبعض الظروف وأحرف الجر[1] .

ويعزى تعلم الطفل الأسماء أولا نظرا للنفعية من جهة وعدم التجريد في الأسماء من جهة أخرى كما هو في الأفعال .

تركيب الجمل :

لا يستطيع الطفل أن يؤلف جملة إلا بعد أن يحصل حدا أدنى من الألفاظ وقدره بعض العلماء بحوالي مائة أو مائتين من الألفاظ ، والذخيرة اللغوية لدى الطفل لا تقاس بعدد المفردات التي يعرفها فحسب بل بحسن استعمالها له ، ولذلك فلابد من معرفة مقدرة الطفل على تركيب الجمل وهنا نوضح أن وحدة الكلام عند الطفل ليست

(١) ارتقاء اللغة عند الطفل – من الميلاد إلى السادسة – د . صالح الشماع – دار المعارف ص ١٢٤ .

الكلمة بل الجملة وهذا الأمر يصدق على الطفل الصغير والكبير معا ، فالأول لا يستطيع أن يتصور مفهوم الكلمة ، وكيف أنها تحيل إلى المدركات ، بل هو يتكلم لا لشيء إلا ليعبر عن حاجات ملحة أو يطلب مساعدة فهو عندما يستعمل كلمة واحدة إنما يعني بها جملة كاملة .

ونقسم مراحل تكوين الجمل لدى الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد إلى ثلاث مراحل[٢] :

ا - مرحلة الكلمة القائمة مقام الجملة (من السنة الأولى إلى الثانية تقريبا) فقد يعني بقوله ماما تعالى يا ماما .

ب - مرحلة الجملة الناقصة (من الثانية إلى الرابعة) والمقصود بالجملة الناقصة هي الكلمات (اثنتان أو أكثر) الموضوعه بعضها بجانب بعض من غير أن ينتج عنها جملة تامة .

جـ - مرحلة الجملة التامة (من السنة الرابعة) فقد لوحظ أن الجمل البسيطة يتناقص عددها ابتداء من السنة الثالثة أو تحل محلها تدريجيا الجمل الأكثر تعقيدا ، ونقصد بها المشتملة على النعت واسم الموصول والظرف وما إلى ذلك . ونود أن نشير أن تحديد المراحل بالأشهر أو السنوات ما هو إلا أمر تقريبي نسبي لا ينطبق على جميع الأطفال .

---

(٢) محاضرات في علم النفس اللغوى - د . حنفي بن عيسى - ص ١٥٨ .

كيف يتعلم الراشد اللغة

لا يحسبن أحد أن امتلاك ناصية اللغة تتم بصورة عفوية وتلقائية بل على العكس من ذلك لابد من التدريب مدة طويلة حتى يكتسب الفرد عادات لفظية ويعرف كيف يستعمل تلك الألفاظ استعمالا صحيحا وقيل أن الطفل يقضي ما يزيد على خمس عشرة سنة قبل أن يمتلك زمام اللغة وقبل أن يتقنها كتابة ونطقا وبعد أن يمتلك الطفل زمام اللغة أي في المرحلة الثانوية وعندما يصبح راشدا تبدأ قدراته على التعبير السليم تنمو ويصبح يميز بين الألفاظ والدلالات ويختار اللفظ المناسب للمعنى الذي يناسبه ولابد هنا من أن يتقن الراشد قواعد اللغة إذ أنه ما من لغة إلا وتتألف من ركنين أساسيين هما : المفردات من جهة ، والقواعد من جهة أخرى وعرفنا كيف يكتسب الطفل المفردات وينمي حصيلته اللغوية ، ولكن معرفة المفردات وحدها لا يكفي لأنه لا يمكن للإنسان أن يستعمل المفردات كيفما اتفق ولابد من مراعاة نسق معين ولابد من اعطاء كل كلمة مكانها في الجملة حتى يكون الكلام مفيدا ، ولو كانت عملية التكلم مجرد رص الكلمات خلف بعضها لكان تعلم اللغات أمرا سهلا ولاستطاع أي فرد كتابة ما يريد في أي لغة كانت ويستطيع أن يستعمل القاموس وحده دون حاجة إلى غيره ولكن الأمر خلاف ذلك . والسؤال الذي يطرح نفسه كيف يستطيع الإنسان ان ينظم كلامه في جمل مفيدة تشتمل على أسماء وافعال وحروف للإجابة على هذا السؤال يمكننا أن نفترض شيئين .

الافتراض الأول هو الوسط الذي يعيش فيه الفرد من أسرة ومدرسة ومجتمع ، هذا الوسط يتعلم منه الفرد جميع الصيغ الممكنة ويزوده بكل ما يحتاج إليه من جمل فيحفظها جاهزة دون أن يبذل أي

جهد فى تركيبها . ويتعلم كذلك كيف يربط كل واحدة منها بما يناسبها من المواقف والحالات وان صح هذا الافتراض على بعض الجمل التى حفظناها عن ظهر قلب فانه لا يصح إذا نظرنا إلى أكثر ما يصدر عنا من جمل ، لأن الجمل لا تحفظ المفردات[1] .

ونحن نعلم أن الجمل ننشئها انشاء ونركبها بحسب ما تمليه علينا الظروف والمواقف والإنسان فى هذه الحالة حر فى أن يبتكر ما يشاء من صيغ التعبير شريطة أن يتقيد بقواعد النحو .

أما الافتراض الثانى وهو أن الإنسان يتعلم القواعد ويطبقها فى كلامه وهنا نجد سببا يجعلنا نرفض هذا الافتراض وهو أن الطفل يعرف كيف يتكلم قبل ذهابه إلى المدرسة وقبل أن يسمع شيئا عن قواعد النحو والصرف وهناك أيضا سبب أقوى وهو أن فحول الشعراء فى الجاهلية لم يكونوا يعرفون شيئا عن قواعد النحو ، بل كانوا ينطقون بالسليقة ، فما أخطأوا ولا لحنوا ، بل أن أشعارهم صار يستشهد بها عند وضع القواعد على يد النحاة .

وبعد أن اثبتنا خطأ الافتراضين السابقين فلابد أن نجد تفسيرا آخر ، وفى الحقيقة هو أن الإنسان يطبق قواعد النحو بالسليقة لا بالتعلم ، وهذا الحكم ليس مطلقا فبعض القواعد النحوية والصرفية لا غنى للإنسان عن تعلمها ، ومالم يتدرب عليها منذ الصغر فانه سيرتكب كثيرا من الأخطاء حين يتكلم أو يكتب بلغة قومه والقواعد فى الواقع بعضها اصطلاح أى ما اتفق عليه النحاة ، فلابد إذن من تعلمه والبعض الآخر منها مطابق للمنطق أى يتماشى مع بداهة العقل فلا حاجة لتعلمه وحفظه .

(١) انظر : محاضرات فى علم النفس اللغوى - ص ١٨٤ .

« ولتوضيح هذه المسألة نقول : إذا نظرنا إلى المفردات فانـا نستطيع أن نميز بينها نوعين : مفردات لغوية ، ومفردات منطقية »[1] .

أما النوع الأول : فنعنى به جميع الأسماء الدالة على انسان أو حيوان أو جماد كما نعنى به جميع الأفعال الدالة على الحدث المقترن بالزمان .

أما النوع الثانى : فالمقصود به كل كلمة يستخدمها العقل لتكون له أداة وسندا ولترابط بين معانى الألفاظ بعلاقة من العلاقات ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر .

١ – اسماء الاستفهام .

٢ – اسماء الشرط والإشارة والوصل .

٣ – واسماء تدل على الشمول ، مثل كل جميع – سائر ، الخ . فهذه الكلمات رغم كونها اسماء فهى لا تدل على انسان أو حيوان أو جماد وإنما يستعين بها العقل لإفادة بعض العلاقات المنطقية كفكرة الكم والكيف والزمان والمكان والاستفسار وغير ذلك .

٤ – بعض الأدوات أيضا تعد من هذا النوع كأداة التعريف (ال) وأداة التنكير (التنوين) واداة الاستفهام .

٥ – ومن هذا النوع أيضا أغلبية الحروف سواء منها الناصبة (ان ، لن) أو الجازمة ، أو حروف العطف أو حروف المعانى .

ومن الواضح أن هذه الحروف لا تفيد معنى فى حد ذاتها وانما يستعان بها للتعبير عن بعض المفاهيم كفكرة النفى أو انطباق الحكم الأول على الكلمة المعطوفة أو فكرة التمييز أو الاستنتاج[1] .

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٦ .

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٦ .

ولقد يقول البعض أن هذه المفردات المطلقية كما يسميها (ميلر) يمكن أن نطلق عليها تسمية أخرى وهى (المفردات النحوية) لأنها بالنحو ألصق واليه أقرب .

وفى الحقيقة أن أكثر المفردات التى استشهدنا بها مزدوجة أى أنها تعتبر من أدوات المنطق كما يصح أن تعتبر من أدوات النحو .

وخلاصة القول أن الراشد يتعلم اللغة بوجود طرف ثان ولابد من وجود منبه واستجابة والاستجابة لا تحصل إلا إذا توفرت إحدى الشروط الآتية :

١ - شعور المتكلم بدافع قوى أو حاجة ملحة .
٢ - وجود منبهات خارجية فى الوسط المحيط .
٣ - رد المخاطب بكلمات تتحول بدورها إلى منبهات ودافع للكلام .

ونضيف إلى ذلك الحالة التى يكون عليها المستمع أو جمهور المستمعين وكذلك الظروف والملابسات التى يجرى فيها التبليغ ، عوامل تؤثر فى الكلام من حيث طوله أو قصره .

وبعد فاننا وجدنا أن تعلم الراشد اللغة يحتاج إلى تدريب وممارسة وتعلم أصول وقواعد اللغة مع وجود الوسط والمحيط الذى يساعد على سرعة التعلم واتقان اللغة إذ أن الفرد يتأثر بالمجتمع الذى يعيش فيه ويتعامل معه ، ونستطيع القول أن الفرد لا يتعلم اللغة دفعة واحدة بل يتعلمها على مراحل وهو فى كل مرحلة يضيف إلى معلوماته معلومات جديدة والفاظ ومفردات جديدة ويتوقف سرعة تعلم الفرد اللغة على مدى استعداده وقدرته وتقبله فكلما كان المرء مستعدا لقبول المفردات الجديدة كان تعلمه للغة أسرع .

ومن الخطأ التصور أن لغة الفرد على حال واحدة بعد انتهاء مرحلة الطفولة بل هي فى تغير مستمر فهو لا يزال يضيف اليها ويعدل فيها إلى أن يموت .

فهو فى كل مرحلة يضيف الفاظا أخرى لا علم له بها هذا بالاضافة إلى ما يسمعه من مدرسيه من ألفاظ جديدة متعلقة بالمواد الدراسية على مختلف أنواعها .

وإذا نظرنا إلى الجنس الآخر كأن يتصل ولد مع فتاة فربما يسمع ألفاظا من هذه الفتاة لم يكن قد سمعها من قبل وهكذا فان الفرد يسمع فى كل مكان وفى كل مجال وفى كل مجتمع الفاظا وعبارات جديدة يضيفها إلى معلوماته وذخيرته اللغوية ، وهكذا نجد أن لغة الفرد الواحد فى فترة من العمر تختلف عن لغته فيما سبق وفيما يلحق من حياته .

وكما أن اللغة كما تبين لنا علامة فردية مميزة فهى كذلك علامة طبقية مميزة فلقد تختلف لغة المتعلمين عن لغة غير المتعلمين وتختلف لغة هؤلاء عن لغة انصاف المتعلمين ، وكذلك نجد اختلافا فى اللغة حسب المهنة التى يمتهنها الإنسان فلغة الصيادين تختلف عن لغة الفلاحين ولغة هؤلاء تختلف عن لغة النجارين وعن لغة الحدادين وهؤلاء يختلفون فى لغتهم عن لغة أبناء المدارس أو الموظفين الحكوميين وهكذا ونجد أن لغة المسلمين تختلف عمن يدينون بديانات أخرى فاللغة وهذه الحالة قيد من القيود بل هى أشبه ببصمات الأصابع ، إذ كل فرد يختلف عن غيره من حيث نوع بصماته ويحتاج الفرد إلى مران وتعلم إذا ما أراد أن يتحول من لغة جماعته إلى لغة جماعة هم أعلى منه درجة فى الثقافة أو العلم أو الطبقة الاجتماعية .

ونحن نعرف أن لغة مجمتمع الأثرياء تختلف عن لغة مجتمع متوسطى الحال أو الفقراء إذ نجد الفئة الأولى تكثر من استعمال الألفاظ الأجنبية دليلا على الرقى والحضارة هذا من وجهة نظرهم فكثيرا ما تدخل هذه الطبقة الفاظا انجليزية أو فرنسية حسب درجة ثقافتهم فى الاستعمال اللغوى اليومى العادى .

وفى الحقيقة ان اختلاف اللغات ظاهرة طبيعية بين فئات المجتمع الواحد وطبقاته فلا نستطيع أن نوحد اللغة بين مختلف فئات المجتمع وبهذا تكون اللغة علامة مميزة للطبقة فى المجتمع الواحد .

خاتمة

هذا البحث جهد متواضع يضاف إلى المكتبة اللغوية وقد اختمرت فكرة الكتابة عن هذا الموضوع فى ذهنى منذ اعدادى لرسالة الدكتوراه واستمرت الفكرة مع البحث حتى ظهرت إلى حيز الوجود فى هذا البحث حيث يجد المهتم فى أمور اللغة موضوعا شيقا وشاقا الا وهو علاقة الفكر باللغة ولقد اجهدت هذه المقولة كثيرا من العقول فحارت بها ولم تستطع أن تقول فيها برأى ، واستطيع القول بعد الاعتماد على الله أننى ازلت اللثام عن كثير من الغموض الذى كان يكتنف هذا اللون من الدراسة اللغوية ولقد ساعدنى فى ذلك ابحاث لغوية مترجمة قمت بها أثناء عملى مدرسا بجامعة تلمسان فى الجزائر وخاصة عن الكتب الفرنسية ، واستطيع الآن أن أقدم هذا الجهد إلى جميع المهتمين بعلم اللغة وخاصة من يريدون معرفة علاقة اللغة بالفكر أو الفكر باللغة وهى كما ذكرت علاقة فلسفية علاقة وطيدة لا انفصام بينهما فالفكر يحتاج إلى لغة تعبر عنه واللغة تحتاج إلى فكر ليعبر عنه وهكذا فاللغة والفكر وجهان لعملة واحدة ، وسيجد القارىء فى هذا البحث موضوعات شتى شيقة تتعلق بالسمات المشتركة بين اللغات ووظيفة اللغة كوسيلة للتبليغ والتعبير والتوصيل ثم ما يهم الباحث من أثر دلالة الألفاظ على المعانى وكان لزاما على القاء الضوء على نشأة اللغة عند الطفل وتدرجت معه إلى أن يصبح شابا راشدا يدرك مكنون اللغة ويمتلك زمامها ثم أظهرت مدى أثر اللغة فى الممايزة بين الأفراد والطبقات من حيث أن لكل فرد ولكل طبقة لغتها الخاصة بها التى تميزها عن غيرها .

وبهذا أرجو الله أن أكون قد قدمت عملا فيه خدمة للعربية والإسلام وفيه صون لها وإعلاء من شأنها ..

وبالله التوفيق

أحمد حماد

فهرس الموضوعات